«مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق»
«مقامة في حرب المدن بين المسلمين والفرنجة»
لصلاح الدين الصفدي

دراسة وتحقيق وشرح
د. سمير الدروبي
قسم اللغة العربية - جامعة مؤتة

ملخص

يتناول هذا البحث مقامة لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م دراسةً وشرحاً وتحقيقاً، ويعرض حياة الصفدي عرضاً موجزاً، ثم يبين موضوع المقامة وسبب إنشائها، وهي مقامة ذات موضوع طريف يتصل بحرب المدن بين المسلمين والفرنجة، إذ لجأ الفرنج بعد هزيمتهم النكراء على يد المماليك في الساحل الشامي، وإذلالهم في أرمينيا الصغرى إلى التخطيط إلى حرق المدن الإسلامية الكبرى، ونجح عملاؤهم في اضرام النيران في أسواق ومساجد ومدارس دمشق في سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م وكان الصفدي - وهو من كتاب الدولة المطلعين على أسرارها - موجوداً بدمشق حينئذ، فوصف ذلك الحدث ناقلاً مشاهد حية منه، ومعبراً عن مشاعر أهالي دمشق لخسارتهم الكبرى مادياً وحضارياً، وكاشفاً عن دور الدولة إبان الحريق وبعده.

ويعرض للشكل المقامي عند الصفدي الذي خالف فيه نهج الهمذاني والحريري، ويبيّن أن هذا النمط المقامي أقرب ما يكون إلى المقالة مع المحافظة على بعض العناصر الموروثة، ويتناول أسلوب الصفدي في مقامته حيث التزامه السجع القصير إطاراً، وإكثاره من الجناسات والتوريات والاقتباس وحل المنظوم.

وكان الاعتماد في تحقيق هذه المقامة على نسختي أحمد الثالث رقم (٢٧٩٧)

وآياصوفيا رقم (٣٤٢٥) من مسالك الأبصار، ونسخة الاسكوريال رقم (٥٢٤)، وَزُوِّدَ نصُّ المقامةِ المحققُ بتعليقات ضافية على ما فيها من غريب ومواقع وأعلام، وخرجت الأشعار من مظانها، وأُرجع كل ما اقتبسه الصفدي إلى مصادره.

Abstract

This is a study interpretation and edition of the Makama of Salah al-Din Al-Safadi (d.1 362 A.D., 764 Hijri). The outset is a brief description of al-Safadi's life. The writer explicated the subject matter of Al-Makama and the "real" reasons of writing it. The subject matter pertatins to the city-wars between the Muslims and the Franks. The latter, being defeated by the Mamluks on the Syrian coast and also in Armenia Minor, plotted to burn large Islamic cities and that would be in burning marketplaces, mosques and schools in Damascus. Al-Safadi, secretary of state, described the event, the feelings of the inhabitants of Damascus and the role of the state concerning this damage.

The writer describes the form of this Makama that differs from those of Al-Hamathani and Al-Hariri. Other things being equal, the style of this Makama is very similar to that of an essay. Al-Safadi's style is characterized by short rhymed words used as a frame, puns, concealment, quotation and re-paraphrusing of poetry.

This edition of this Makama relies on the manuscripts kept in Ahmad III (no. 2797) and Ayasofya (n. 3425) of Masalik al-absar and El Escorial Manuscript (no. 524). The writer gave further comments on alien elements, places and names. Sources of lines of poetry were provided as well as for the puotations used by Al-Safadi.

الصفدي كاتب مقامة «رشف الرحيق في وصف الحريق»:

ولد صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي سنة ٦٩٦ أو ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م، بمدينة صفد بفلسطين، وكانت يومها واحدة من النيابات المملوكية ببلاد الشام، فحفظ فيها القرآن صغيراً، ونال حظاً جيداً من العلم بها، وذكر بعض مترجميه أنه «تعاطى صناعة الرسم فمهر فيها، ثم حبب إليه الأدب فولع به، وكتب الخط الجيد، وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة فطلب بنفسه[١]». والمراد بالرسم هنا الرسم على القماش[٢].

ويبدو أن الشيخ نجم الدين الصفدي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) الذي كان كاتباً للسر وخطيباً بصفد، من أهم شيوخه بها، وهو الذي حبب إليه الأدب وصناعة الإنشاء[٣]؛ وقرأ بعضاً من ديوان أبي تمام على أبي الحسن علي بن عتيق بصفد[٤]، إلا أن صفد لم تشبع نهمه العلمي، فسافر إلى دمشق والقاهرة حيث المدارس الكثيرة والعلماء الأعلام؛ ليأخذ العلم في الحديث والأدب والتاريخ والفقه والنحو عن عدد كثير من العلماء، أمثال:

- جمال الدين المزي (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م)، درس عليه الصفدي الحديث في دار الحديث الأشرفية بدمشق[٥].
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، وكشف الصفدي عن مدى

---

(١) الدرر الكامنة: ١٧٦/٢.

(٢) إحسان عباس، صلاح الدين الصفدي، مجلة العربي، الكويت، عدد ١٦ (آذار). ١٩٦٠، ص١١٠-١١٤.

(٣) الوافي بالوفيات: ٢١٤/٤؛ ٢٥٦/١٢-٢٥٩؛ ١٧٩/٢٢؛ أعيان العصر: ٢٨٢/٢؛ مملكة صفد في عهد المماليك: ٢٤٦-٢٤٧.

(٤) المصدر السابق: ٢٩٩/١١.

(٥) المصدر السابق: ج٢٥، ورقة: ١٤٧و.

إفادته من هذا الشيخ العظيم بقوله:«وكنت أحضر دروسه، ويقع لي في أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره ولا وقفت عليها في كتاب»[1].

- شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وقد قرأ عليه «تاريخ الإسلام» وكتباً أخرى[2].

- شهاب الدين محمود الحلبي (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، وقد قرأ عليه «ديوان المتنبي» و «حماسة أبي تمام» و «ألفية ابن مالك» و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» وغيرها[3].

- أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، وقد قرأ عليه كتباً في الأدب واللغة والنحو، مثل: «مقامات الحريري» و «سقط الزند» و «الفصيح» و «ارتشاف الضرب»[4]... الخ.

- فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، قرأ عليه عوالي «المعجم الكبير» للطبراني، وكتابه «عيون الأثر في المغازي والسير»[5].

وشيوخ الصفدي كثيرون، ولا يتسع مقام هذه الترجمة للتعريف بجمهرتهم، ويلاحظ أن الصفدي كان محظوظاً بأن يأخذ علمه عن نخبة علماء الإسلام الذين قرأ عليهم بعض كتبهم وغيرها من كتب العلم، وقد أجازه كثير منهم بخطوطهم[6]، ثم أن بعض شيوخه كالذهبي وابن كثير والحسيني قد سمعوا منه[7] مما يدل على تبحره ونبوغه وشهرته العلمية.

وفضلاً عن طلبه للعلم وتصدره للتدريس فإنه قد تسلم عدداً من الوظائف الإدارية

---

(١) الواقي بالوفيات: ٢١/٧.

(٢) المصدر السابق: ١٦٣/٢.

(٣) المصدر السابق: ٢٥، ورقة: ٨٥ظ-٨٦و.

(٤) المصدر السابق: ٢٦٩/٥.

(٥) المصدر السابق: ٣٤٦/٥؛ ٨/١.

(٦) الوافي بالوفيات: ١٥٢/٢؛ ٣٠٥/١-٣٠٧؛ ١٦٣/٢.

(٧) الدرر الكامنة: ١٧٦/٢.

والمالية في الدولة المملوكة، ويتضح من مصادر ترجمته ومن كتبه أن علاقاته الكثيرة الطيبة وأصله المملوكي، ودماثة خلقه، ومقدرته الكتابية، قد مكنته من النجاح الوظيفي، ولعل كتابته للدرج[1] بصفد كانت أول أعماله، ثم شغل العمل نفسه في القاهرة[2]، وترقى في الأعمال الكتابية إلى أن أصبح كاتباً للسر[3] بحلب والرحبة، وعين وكيلاً لبيت المال[4] بدمشق، ويمكن أن تعد هذه الوظيفة ذروة سنام مناصبه في الدولة المملوكية، وقد وصفت بأنها «وظيفة جليلة معتبرة... ولا يلي هذه الوظيفة إلا من هو من ذوي العدالة المبرزة»[5].

وترك الصفدي عدداً كثيراً من المصنفات في التراجم والنقد والبلاغة واللغة والأدب، مثل «الوافي بالوفيات» و «الغيث المسجم» و «تصحيح التصحيف» و «غوامض الصحاح» و «نصرة الثائر على المثل السائر» وغيرها، واستمر الصفدي ملازماً للتأليف والإفادة والعمل ومراسلة علماء عصره، إلى أن مات بالطاعون في شوال سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، ودفن بمقابر الصوفية بدمشق[6].

موضوع المقامة وسبب إنشائها:

لم يطرق الصفدي في مقامته «رشف الرحيق» موضوعاً تقليدياً سائداً في المقامة العربية وبخاصة موضوع التكدية أو الأحاجي النحوية واللغوية، بل تناول موضوعاً جديداً أثارته مناسبة معينة، ولذا فإن مثل هذا الموضوع يعد صدى لبيئته وما دار فيها من جسيم الأحداث وعظائم الأمور، وإن ظن المستشرقان: بروكلمان وبلت أنه تناول موضوع الخمر في هذه المقامة[7].

---

(١) كاتب الدرج: هو الكاتب الذي يكتب المكاتبات والولايات. انظر: صبح الأعشى: ٤٦٥/٥.

(٢) الدرر الكامنة: ١٧٦/٢.

(٣) كاتب السر: هو رئيس ديوان الإنشاء. انظر: صبح الأعشى: ١٠٤/١؛ ٢٩/٤؛ ٤٤؛ ٤٦٥/٥؛ ٩٢/١١-٩٣؛ مسالك الأبصار (دولة المماليك الأولى)، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي: ١٢٠.

(٤) الدرر الكامنة: ١٧٦/٢.

(٥) مسالك الأبصار (دولة المماليك الأولى): ١٢٢.

(٦) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ١١٩/٣-١٢٠؛ الدرر الكامنة: ١٧٦/٢-١٧٧؛ المنهل الصافي: ٢٤١/٥-٢٥٧؛ طبقات الشافعية الكبرى: ٥/١٠-٦.

(٧) انظر: (C. Brockelmann- [CH. Pellat], "Makama" EL2.

وموضوع مقامته من الموضوعات الطريفة التي قلما طرقها المقاميون في مقاماتهم، ألا وهو الحرب، ويستثنى من ذلك «المقامة الدمشقية» لابن الوردي[1]، ومقامة جمال الدين عمر بن إبراهيم الرسعني التي أنشاها في وقعة حلب، وذلك أن التتار بعد تدميرهم الوحشي لبغداد زحفوا إلى المدن الشامية، وكانت حلب قد رفضت التسليم لهم فاقتحموها، وأعملوا السيف في رقاب أهلها، واستباحوها سلباً وتحريفاً ونهباً، ولم ينج من أهلها إلا القليل، يقول الرسعني: «... وتخربت الدور والقصور، ونحرت الحور في النحور، **وجرت عيونها على أعيانها**، وهمت جفونها على شبانها بدموع جرت نجيعاً لفظوع طرت سريعاً، ونمى الطغيان والغش في روضة الشام، وسما العدوان في عش بيضة الإسلام، ورفعت الصلبان على المساجد، ووضعت الأديان والمعابد، حتى بكى على الوجود الجلمد، وشكى إلى المعبود السرمد»[2].

ومما يؤسف له أن ما وصل إلينا من مقامة الرسعني التي وصفها ابن الوردي بأنها طويلة، لا يزيد على بضعة عشر سطراً، لذا فإنه يصعب الحكم على مضمونها وشكلها، وإن كان ما تبقى منها يدل على الفاجعة، وفداحة الخراب، وضخامة المجزرة التي لحقت بالمدينة وأهلها.

والصفدي في مقامته «رشف الرحيق» يتناول موضوع الحريق الهائل الذي كاد أن يأتي على مدينة دمشق حوالي منتصف القرن الثامن الهجري، وكان هذا الحريق من تدبير الفرنج وفعلاتهم، ويبدو أنهم قد لجأوا إلى أعمال الحرق والتخريب بعد أن دحرهم المماليك في الساحل الشامي، واجتثوا بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون (ت٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) بقية معاقلهم في عكا وصور وصيدا وبيروت[3] وغيرها، وقام المماليك في عهد الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ/١٣٤١م) بنقل الحرب إلى أرمينة الصغرى، وأذلوا ملكها المعروف **بالتكفور**، فسلم كثيراً من مفاتيح قلاعها للدولة المملوكية على الرغم من امداد الفرنج له بالمال والرجال[4].

---

(١) ديوان ابن الوردي: ١١٩-١٢٩.

(٢) تتمة المختصر في أخبار البشر: ٣٠٩/٢.

(٣) فوات الوفيات: ٤٠٦/١-٤٠٩.

(٤) انظر: نزهة الناظر: ٤٠١-٤١٩.

ولما كانت مدينة دمشق موقعاً متقدماً في نحر التتار والأرمن، وكان نائبها سيف الدين تنكز الحسامي (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) الرجل الثاني في الدولة المملوكية، ومن أشد النواب حرباً على الفرنج والتتار، فإن الفرنج قد دبروا مكيدة إحراقها، وقد أورد المؤرخ الدمشقي ابن كثير، وهو معاصر لهذا الحدث، معلومات مهمة تساعد في فهم هذه المقامة، يقول في معرض حديثه عن حوادث سنة ٧٤٠هـ: «ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم، وجمعوا من بينهم مالاً جزيلاً، فدفعوه إلى راهبين قدما عليها من بلاد الروم، يحسنان صنعة النفط، اسم أحدهما ملاني والآخر عازر، فعملا كعكاً[1] من نفط، وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك، فوضعاه[2] في شقوق دكاكين التجار في سوق الرجال عند الدهشة في عدة دكاكين من آخر النهار، بحيث لا يشعر أحدٌ بهما، وهما في زي المسلمين، فلما كان في أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين حتى تعلقت في درابزينات المأذنة الشرقية المتجهة للسوق المذكور، وأحرقت الدرابزينات، وجاء نائب السلطنة تنكز والأمراء الألوف، وصعدوا المنارة وهي تشعل ناراً، واحترسوا عن الجامع فلم ينله شيء من الحريق، ولله الحمد والمنة، وأما المأذنة فإنها تفجرت أحجارها، واحترقت السقالات التي تدل السلالم، فهدمت وأعيد بناؤها بحجارة جدد، وهي المنارة الشرقية... .

والمقصود أن النصارى بعد ليال عمدوا إلى ناحية الجامع من المغرب إلى القيسارية بكمالها، وبما فيها من الأقواس والعدد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس، واحترق جانب من المدرسة الأمينية... وما كان مقصودهم إلا وصول النار إلى معبد المسلمين، فحال الله بينهم وبين ما يرومون، وجاء نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين الحريق والمسجد جزاهم الله خيراً.

ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم أمر بمسك رؤوس النصارى، فأمسك منهم نحواً من ستين رجلاً، فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات، ثم

---

(١) في البداية والنهاية: «كحطاً» وهو تحريف، وأثبت الصواب.

(٢) في المصدر السابق: «فوضعا» ولعله تحريف، وأثبت الصواب.

بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد، وجعلوا يتماوتون واحداً بعد واحد، ثم أحرقوا بالنار حتى صاروا رماداً»[1].

وعلى الرغم من قيمة معلومات ابن كثير التي تساعد في إضاءة كثير من جوانب هذه المقامة، فإنَّها تبقى عامة في وصف الحادثة، ولم تقدم لنا معلومات تفصيلية عن مكيدة الإحراق، وكيف تم تدبيرها، وعن الأشخاص الضالعين في جرمها، ويبدو لي أن المقريزي قد كان أكثر اطلاعاً على ما يتعلق بأمر الحريق، فهو يذكر لنا بعض أسماء مدبري هذا الحريق، ومن تعاون معهم من موظفي الدولة المملوكة، وكيفية وضع عبوات النار، ثم خروج الفاعلين إلى بيروت، وتهريبهم إلى قبرص، وما أوقعه نائب الدولة من أنواع العذاب بمرتكبي جريمة الإحراق، يقول عند حديثه عن وقائع سنة ٧٤٠هـ: «وقع بدمشق في أول الليل حريق بالدهشة شرقي الجامع الأموي، فعظم الأمر حتى وصل إلى الجامع، وتعلق بالمنارة الشرقية، وسقط على الجملون[2] الرصاص، فبادر الناس جميعاً إليه، وأطفاوه بحضرة الأمير تنكز في مدة يومين بلياليها.

ثم وقع أيضاً في ليلة أول ذي القعدة حريق آخر بقيسارية القواسين والكفتيين[3] وسوق الخيل من دمشق، وكان أمراً مهولاً مدة يومين بلياليها، فعدم فيها نحو خمسة وثلاثين ألف قوس، وعدمت الناس أموالاً عظيمة، منها للتجار خاصة ما مبلغه ألف وستمائة ألف دينار، وخربت أماكن كثيرة.

فبينا الناس في ذلك إذ وجدت ورقة فيها: «المملوك الناصح» تتضمن أن أمر الحريق يظهر إذا أُمسك يعقوب غلام المكين كاتب الجيش، فقبض على المذكور وعوقب، فاعترف على أستاذه عدة من كتاب النصارى، وأحضروا بين يدي الأمير تنكز، فأقروا جميعاً بذلك. فأوقع تنكز الحوطة على موجودهم، وكتب عليهم محضراً ملخصة: «أن الرشيد سلامة بن سلمان بن مَرْجا النصراني، كاتب الأمير علم الدين سنجر البشمقدار،

---

(١) البداية، النهاية: ١٤/١٨٦.

(٢) الجملون: «لفظ عامي معناه سقف محدب مستطيل، فإن كان مستديراً فهو قبة، والمعنى الثاني هو المقصود هنا، إشارة إلى قبة الرصاص، وهي القبة المعروفة أيضاً باسم قبة النسر بالجامع الأموي بدمشق». السلوك لمعرفة دول الملوك: ج٢ق٢، ص٤٩٥.

(٣) حول سوقي: القواسين والكفتيين، انظر: النص: ٢٠، حاشية: ٣،١٣.

أشهد عليه أنه حضر إليه منتصف شول، المكين يوسف بن مجلّي كاتب الأمير بهادر آص، والمكين يوسف عامل الجيش، وصحبتهما[1] راهبان أحدهما اسمه ميلاني والآخر اسمه عازر، وقدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعابدها، وقد باعا نفسيهما على ذلك، وأنهما يعلّمان صناعة النفط، فاجتمعوا في بستان المكين يوسف، وأُحضر لهم ما يحتاجون إليه من النفط، وعملوا كعكات، وتنكروا في لباسهم، ونزلوا إلى الدهشة، وتفرّقوا في جوانبها، وابتاعوا منها قماشاً، ودفعوا ثمنه لصاحبه، وجعلوا القماش عنده وديعة، وقد دسوا فيه تلك الكعكات المصنوعة، فوقع منها ذلك الحريق، ثم دفعوا إلى الجرائحي النصراني الذي على باب قيسارية القواسين خمسمائة درهم وكعكة من تلك الكعكات، فرمى بها في دكان داخل القيسارية، فكان منها الحريق الثاني، وأن الراهبين المذكورين خرجا بعد ذلك بكتب الجماعة إلى بيروت، حتى سيرهم العامل بها في مركب إلى قبرص». وأُرّخ المحضر بعشري[2] ذي القعدة، وحمل إلى السلطان.

ثم سُمِّر الجماعة في يوم السبت ثاني عشري ذي القعدة، بعد ما عوقبوا عقوبات عظيمة، وعددهم أحد عشر رجلاً، وهم: المكين يوسف بن مجلي عامل الجيش، وأخوه، والمكين جرجس كاتب الحوطات، والمكين كاتب بهادر آص، وسمعان، وأخوه بشارة، والرشيد سلامة بن سليمان كاتب سنجر البشمقدار، والعلم عامل بيروت، والجرائحي، وجزاران نصرانيان، وشخص يعرف بسبيل الله، وكان هذا الرجل بالقاهرة سنة خمس وعشرين بزي غريب يلبس جلداً، ويحمل على كتفه زيراً نحاساً أندلسياً، وبيده شربات كذلك، ويقول بلسان غتمي: «سبيل الله»، ويسقي الناس بغير جُعل، فمن الناس من اعتقده، ومنهم من اتّهم أنه جاسوس، ثم خرج هذا الرجل حاجّاً، وقدم دمشق وأقام بها يسقي الماء، حتى دخل مع النصارى فيما قاموا فيه من أمر الحريق»[3].

وموضوع مقامة الصفدي لا يخرج في جوهره عما أورد ابن كثير والمقريزي، والفرق بينهما وبين الصفدي أنهما كتبا الحدث بأسلوب المؤرخ الذي يحرص على إيراد

---

(١) هكذا في النص ولعلها «وصحبهما».

(٢) ترد لفظة عشر أحياناً على صورة عشري في سجلات المحاكم الشرعية والوثائق التاريخية في العصرين الأيوبي والمملوكي. أنظر: وثائق مقدسية تاريخية: ٢/٢٣١.

(٣) المصدر السابق: ج٢ق٢، ص٤٩٥-٤٩٧.

الأخبار بدقة وأمانة وموضوعية، بينما أنشأ الصفدي مقامته بأسلوب الأديب الذي يصور بألفاظه مشاهد الحدث، ويضفي من أحاسيسه ومشاعره على موضوعه.

وما يجده القارىء عن حريق دمشق الذي دبره الإفرنج عند المؤرخين لا يعدو مجرد السرد الأمين الذي ينقل الروايات، ويعتمد على الوثائق والرواة، أما ما يجده عند الصفدي فإنها صورة أدبية جميلة لتلك الكارثة، نقل لنا الصفدي فيها صورة حقيقية من دمشق وعمرانها ورياضها، وجامعها العظيم وما فيه من بدائع الصنعة العمرانية والترخيم البديع، ومنظر النيران التي تصاعدت إلى عنان السماء، ثم زحف تلك النار إلى منارة المسجد وبعض أجزائه، وانتشارها في الأسواق الكثيرة المحيطة بالمسجد: كالدهشة والوراقين واللبادين والكفت وسوق الخيم والقسي، والمدرسة الأمينية وغيرها، ويصف عملية إطفاء النيران، والجهود المضنية التي بذلها نائب دمشق في سبيل إخماد هذا الحريق ونجاحه في ذلك، ويعدُّ ذلك منقبة أحمدية لتنكز، والأحمدية من طوائف المتصوفة الذين عرفوا باقتحام النيران في ذلك العصر، وعدّوا ذلك من كراماتهم.

وهو يصور لنا جزع الناس الشديد، وحزنهم على ما تلف من ممتلكاتهم وأموالهم، وما آل إليه حالهم من فقر وإفلاس بعد حريق الأسواق بقوله: «وأصبح أهلها كالحمائم تنوح على أقفاصها، وتودُّ اللآلىء أنها لم تخرج إليهم من مغاصها، فما منهم إلا رب نعمة سلبت أصبح بعدَ الجديد في خلق، أوْ غني أمسى بعد ما ضمَّ قفصه يكدي في الحَلَق»[1]، ويعكس حيرة الناس الشديدة في أمر هذه النار، وتخميناتهم وحدسهم في سببها، وما أصابهم من قلق، ودخل عليهم من خوف، وترقبهم لما يأتي به المجهول، وتكشف عنه التحقيقات: «... ولم يزل الناس من أمر هذه النار في قلق، وحَدس نفى عن قلوبهم القرار ورمى جفونهم بالأرق، وحَنق تَودُّ الصبح لو تنفس... »[2].

ويصور اكتشاف مدبري الحريق، وتخوف فريق من الناس، وجماعة من أهل الدولة من إتهامهم خوفاً من تدخل الإفرنج انتصاراً لهم ودفاعاً عنهم، يقول: «فتهيب بعض الناس رميهم بهذا الحجر، وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم وفجر، وخوّف بانتصار الفرنج

(١) النص: ١٨-١٩.

(٢) النص: ٢٢.

لأهل مِلّتهم، وإزاحة علتهم، وكشف غمتهم، والأخذ بثأر رمتهم»[1]، وتبدو صورة نائب الشام حاسماً لموقف التردد، والتخوف، فأمر بتقريرهم فاعترفوا بما فعلوا، ثم أمر بأخذهم بأنواع العقوبات، وضربهم بالسياط حتى انهارت قوتهم، وضعف جلدهم، فتبرأوا مما بدر منهم، وألقى كل منهم اللوم والمسؤولية على غيره: «فما كان إلا أن صممت العزمات السيفية... فأقرّوا بما فعلوا، ووجدوا ما عملوا، فضربوا بسياطٍ كشطت غِلظ الغَلْظِ من جِلْدهم، وأوهنت قوى شجاعتهم وجَلَدهم...»[2].

ولم يكتف تنكز بمصادرتهم، وأخذ أموالهم السحت تعويضاً عما أتلفوه، بل أصدر مرسوماً بتسميرهم على الجمال -وهي عادة تعذيب مملوكية- ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه بتخريب ديار المسلمين أو الحاق الأذى بهم: «ولما أخذ سُحت أموالهم، وصرف في إيجاد ما أعدموه بفعالهم، ... وورد المرسوم الشريف بتسميرهم على الجمال، وإظهار ما لهذه الملة القاهرة من العز والجمال»[3].

ويتبين من خلال المقامة أن الصفدي ينقل أحاسيسه ومشاعره وخلجات نفسه نحو دمشق المدينة الأثيرة لديه، ويتجلى ذلك في قوله: «فشفيت سَقَمي بنسيمها العليل، ... وقطعت بها زمناً ألذ من وصال الحبيب...»[4]، ويعبر عن روعة بناء مسجدها وجمال ترخيمه: «كم أظهرت الصناع فيه بدائع لا يدعيها غيرهم ولا يتعاطى، وكم أبرزوا فيه من معجز؛ لأنهم جعلوا الحجارة أوراقاً، والرخام أخياطاً[5]، وفوق ذلك فإنه يمكن استشفاف بعض آرائه ومواقفه السياسية والفكرية، فإشادته بنائب الشام الأمير تنكز، وتصويره لجرأته في معاقبة المجرمين، دليل على محبة عميقةٍ يكنها الصفدي لتنكز لما عرف عنه من تمسك بالشرع وعدل ورحمة، ولما شهدته بلاد الشام في عهد نيابته من رخاء واستقرار، على الرغم من أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون قد قلب له ظهر المجن، وتنكر له بعد الحريق مباشرة، وقتله في الاسكندرية سنة ٧٤٠هـ إلا أن موقف

(١) النص: ٢٣.

(٢) النص: ٢٣.

(٣) النص: ٢٤.

(٤) النص: ١٣.

(٥) النص: ١٥.

الصفدي الثابت من تنكز لم يتغير، وعرض مأساته مع السلطان بأسلوب يفيض تعاطفاً وأسى[1].

ويمكن الوقوف على رأي الصفدي بأبي العلاء المعري، وكأنه يحاول أن يرد عن المعري ما رمي به من زندقة واتهم به من الحاد، وما أخذ عليه في بعض أبياته، ويظهر أنه كان دائم السؤال عن أمر المعري[2]، ويبدو رأيه جلياً في المعري -وإن لم يسمه-: «فقال من صدق في إيمانه، وكان من أنصار الإسلام وأعوانه...»[3].

وزيادة على ذلك فإنه قد صور الحالة التي تركها منظر الحريق المفزع، وما خلفه من خسارة مادية وحضارية على الدمشقيين بعامة وأولي الضرر منهم بخاصة، فهو يصف أصوات الناس وفزعهم واستغاثتهم بقوله: «وإذا بالأصوات تَعج، والدعوات تلج أبواب السماء وتلج»[4]، ويعبر عن خوف الناس على الجامع من النيران واجتماعهم في صحنه: «فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم»[5] إلى آخر الصور والمشاهد التي ينقلها الصفدي.

الشكل المقامي عند الصفدي في مقامته «رشف الرحيق»:

يلاحظ الدارس لمقامة الصفدي أنه لم يترسم الشكل المقامي الذي سار عليه بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ/١٠٠٧م)، والحريري (ت٥١٦هـ/١١٢٢م)، من حيث ظهور البطل والراوي، ولم يجعل الكدية موضوعاً له، ولذلك فإن الأستاذ شوقي ضيف يصف هذه المقامة -بعد أن يورد بضعة أسطر منها، ويتحدث عما فيها من جناس واقتباس- بأنها: «أشبه برسالة اتخذت موضوعاً لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القص والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه»[6].

---

(١) انظر: أعيان العصر: ١/٢٨٥-٢٩٠.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات: ٧/١٠٠.

(٣) النص: ٢٣.

(٤) النص: ١٥.

(٥) النص: ١٦.

(٦) عصر الدول والإمارات (مصر - الشام): ٨٠٤.

قلت: إن شوقي ضيف ومن قبلة محمود رزق سليم[1] لم يتوافر لهما نص المقامة كاملاً، ولذلك اقتصر سليم على اقتباس فقرات منها، ثم بين ما فيها من أنواع البديع، ولم يشر إلى شكلها المقامي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل هذا النص مقامة أم رسالة؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد من المقدمات التالية:

أولاً: أن الصفدي وهو الأديب الكبير المثقف ثقافة موسوعية في مختلف فروع الثقافة الإسلامية، والذي أمضى معظم حياته كاتباً في دواوين الرسائل في الدولة المملوكية، ونعته كل من ابن حجر وابن قاضي شهبة بأنه «ساد في علم الرسائل»[2] كان واعياً لمدلول الرسالة، ويستبعد أن يخلط بين الرسالة وغيرها من الأجناس الأدبية.

ثانياً: أنه قد أولى المقامات بعامة والحريرية منها بخاصة اهتماماً كبيراً، ودرسها على كبار علماء عصره من أدباء ولغويين، يقول: «ولما قرأت المقامات الحريرية على الشيخ الإمام الأديب الكاتب شهاب الدين أبي الثناء محمود رحمه الله»[3]، ويقول: «... وسمع بقراءتي كثيراً على الشيخ أثير الدين، من ذلك: المقامات الحريرية»[4]، مما يدل على معرفة عميقة ودقيقة بفن المقامات.

ثالثاً: أورد في ترجمته لعبد الله بن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، مقامة تخالف نهج البديع والحريري في مقاماتهم، ولم يتردد أو يعقب على تلك التسمية، يقول: «ومن إنشائه أيضاً صورة مقامة، وهو مما كتب به إلى محيي الدين ابن القرناص الحموي: حكى مسافر بن سيار، قال: لما ألفتُ النوى عن الإخوان...»، والملفت للنظر أن مفتتح مقامة ابن عبد الظاهر قريب من مطلع مقامة الصفدي من حيث الابتداء، بـ(حكى)، والاتيان بعد ذلك بألفاظ دالة على موضوع المقامة.

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٤٠٧/٥ - ٤٠٨.

(٢) الدرر الكامنة: ١٧٧/٢؛ طبقات الشافعية: ١١٩/٣.

(٣) الغيث المسجم: ٤٥٨/٢.

(٤) الوافي بالوفيات: ٢٢٨/٤.

رابعاً: أن ابن فضل الله العمري وهو عصري الصفدي وصديقه، أورد قطعة صغيرة من هذه المقامة في معرض حديثه عن الجامع الأموي بدمشق[1]، ثم أوردها بنصها وفصها عند ترجمته للصفدي[2]، وذكرها العمري وهو من كبار أدباء ذلك العصر بلفظة «مقامة»، كما أن حاجي خليفة ذكر أنها مقامة[3].

خامساً: أن نفي صفة المقامة عن مثل هذا النص، وجعله رسالة، يخضع هذا النص وغيره من النصوص المشابهة إلى شكل مقامي أسسه الهمذاني وتابعه الحريري، ويفرض على المقاميين في كل العصور الانقياد والتقيد بذلك الشكل الأدبي إطاراً ومضموناً، ويعد الخروج عليه خروجاً عن فن المقامة. فما هو هذا الشكل الذي اتخذه الصفدي إطاراً لمقامته «رشف الرحيق»؟

يلاحظ أن منشيء المقامة قد اختار لها عنواناً مسجوعاً: «رشف الرحيق في وصف الحريق» والعنوان يجمع بين التشويق والدلالة على موضوع المقامة، ثم إن الكاتب افتتح مقامته بقوله «حكى» في حين إن البديع قد افتتح مقاماته بـ «حدثنا»، فالحكاية عند الصفدي حلت محل الحديث الذي يقوم به عيسى بن هشام عند بديع ويمكن ببساطة ملاحظة الاتصال بين الشعلة واللهب والزناد والشهاب[4]، وكلها من متعلقات النار التي هي موضوع المقامة، فالحاكي عند الصفدي يقوم بدور الراوي عند الهمذاني.

ويبدأ الحاكي بسرد أحداث المقامة واحداً تلو الآخر، وكأن هذه المشاهد أو الأحداث التي يحكيها فقرات في مقالة طويلة، وربطاً لمشاهد المقامة فإن كاتبها يستهل كلّ واحد منها بـ«قال»: «قال: لم تزل أذني متشنّفة[5] ...، قال: فشفيت سقمي بنسيمها[6] ...، قال: ولازمت جَامِعَها[7] ...، قال: فلما رأيت مجموعة المختار[8] ...»،

(١) مسالك الأبصار: ١/٢٠١-٢٠٢.

(٢) مسالك الأبصار: نسخة أحمد الثالث، مجلد: ٨، ورقة ١٧٨-١٨٦؛ نسخة آياصوفيا مجلد: ١٢، ورقة ١٨٩ب.

(٣) كشف الظنون: ١/٩٠٤.

(٤) النص: ١٢.

(٥) النص: ١٢.

(٦) النص: ١٣.

(٧) النص: ١٤.

(٨) النص: ١٥.

والقائل هنا هو «شعلة بن أبي لهب»، وحفاظاً على عنصر التشويق في متابعة مشاهد المقامة فإن كاتبها يتدخل مقاطعاً الراوي أحياناً بقوله: «وقلت: أضحى نسيم[1] ...، قلت: تقول دمشق[2] ...، قلت: عند مشاهدة تلك الحال في الحال: حريق[3] ...»، ولكن الحوار معدوم بين الراوي وكاتب المقامة، وكأن المقامي جمع بين راوي المقامة وبطلها وجعلهما دائرين في فلكه أو قصد بهما نفسه، ويستمر الحاكي في سرد الأحداث إلى نهاية المقامة، وتعد النهاية طبيعة ومنطقية لها؛ لأنه يصف موضوعاً حقيقياً.

والإطار العام لهذا الشكل المقامي أنه ذو اتصال مباشر بشخص الكاتب أو عصره، يلتزم فيه المقامي الأسلوب المسجوع، وتكون شخصيته محوراً أساسياً تقوم بدور الراوي والبطل معاً، ويكاد هذا الضرب من المقامات أن يقترب من المقالة[4] الأدبية التي تدور حول موضوع معين ولها مقدمة وعرض وخاتمة، كما أن الشكل المقامي يمتاز بمرونة وطواعية كبيرة على طرق الموضوعات الشخصية والاجتماعية والسياسية، ويطلق عقال المقامة من البقاء أسيرة موضوعات مخصوصة قد تكون غير ذات بال في عصر ما.

ومما هو جدير بالذكر أن الصفدي ليس هو المبتدع لهذا الشكل المقامي، بل قد سبقه إلى ذلك الشاب الظريف التلمساني[5] (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) وابن عبد الظاهر[6] وغيرهم، ولكننا لا نعلم من هو أول مقامي خط هذه الطريقة.

أسلوب الصفدي في مقامته:

يمكن القول بأن جميع المقامين قد كتبوا مقاماتهم مسجوعة، ولكنهم يتفاوتون في طول سجعاتهم وقصرها، فالحريري مثلاً يميل إلى السجعات القصيرة التي لا يزيد كثير

---

(١) النص: ١٣.

(٢) النص: ١٥.

(٣) النص: ١٩.

(٤) انظر: شرح مقامات السيوطي: ١/٤١-٤٤.

(٥) مقامات العشاق: ١.

(٦) الوافي بالوفيات: ١٧/٢٦٢.

منها على كلمتين أو ثلاث: «وقطع المراحل، واتخاذ المحامل، وإيقار الزوامل، ...»[1]، وقد فضل السجع القصير على الطويل «لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع»[2].

والصفدي لم يخرج عن إطار المقامة المسجوع، وحاول جهده التقيد بالسجع القصير الذي لا يزيد على عشرة ألفاظ[3]، إلا أنه لم يكن قادراً على ذلك في كل سجعاته، فنجده يزاوج بين سجعة طويلة وأخرى أقصر منها، يقول: «فما سرت فيها إلى روضٍ إلا وأجلسني من النرجس على أحداقه، وقام السرو من السرور على ساقه»[4]، ولعل طبيعة الموضوع وما يحتاج إليه من وصف وسرد هي التي حالت بينه وبين التزام السجع القصير، ولكن يلاحظ ان الصفدي كان يتوخى مراعاة الوزن بين كثير من سجعاته، ويبدو لي أن مرد ذلك يعود إلى مذهبه الفني، ونظرته إلى السجع المصقول... وتأمّلْ هذه الفقر كيف يغلب الوزن على أكثرها، وهذه غاية المنشىء البليغ...»[5].

والظاهرة التي تلي السجع في الأسلوب البديعي عند الصفدي في هذه المقامة هي ظاهرة الجناس، والصفدي حامل لواء الجناس في عصره، وهو من أشد المنافحين عن هذه الحلية البديعية، ويظهر ذلك في مقدمة كتابه المسمى ب «جنان الجناس»، يقول: «فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعة... خصوصاً نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته وبيان شرعته... فهو في البديع خال خده، وطراز برده، وفص خاتمه...»[6]، ونجد في مقامته كثيراً من الجناسات التامة: الحَزْم والحُزُم[7]؛ حِصّة وحُصّه[8]؛ تَلِجُّ وتَلجُّ[9]؛

(١) شرح مقامات الحريري: ١٦/٤.

(٢) المثل السائر: ٢٥٨/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٨/١.

(٤) النص: ١٢.

(٥) الوافي بالوفيات: ٣٩٥/٦.

(٦) جنان الجناس: ١٤-١٥.

(٧) النص: ١٢.

(٨) النص: ١٤.

(٩) النص: ١٥.

ثان وثان[1]؛ جِلْدهم وجَلَدهم[2]، وأكثر منها الجناسات الناقصة، وتسير المقامة على نغم التجنيس في أكثر فقراتها، ولعلَّ إكثار الصفدي من الجناس في هذه المقامة وغيرها من رسائلة هو رسائله هو الذي جر جمال الدين بن نباتة (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) إلى تلك الخصومة الأدبية مع الصفدي: «وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى بجنان الجناس، وقد اشتمل على كثير من هذا النوع قرأه جنان الخناس»[3]، ويبدو أن رأي ابن نباتة في جناس الصفدي هو الذي حمل الباحثين: محمد زغلول سلام[4] وشوقي ضيف[5] على وصفه بالتكلف في جناسه، ولكننا يجب أن نعترف بأن نشأة الصفدي الفنية رساماً، يوازن بين الخطوط والألوان قد تركت أثرها في توخيه للجناس في أدبه شعراً ونثراً، علاوة على أن الاغراق في الجناس يدخل في باب الاستثقال والاستكراه والتكلف[6].

وأما الحلية البديعية التي جعلها الصفدي من دعائم أسلوبه الفني، وأولاها عناية لا تقل عن احتفاله بالجناس فهي التورية، ومن مظاهر اهتمامه بها أنه ألف فيها كتابه «فض الختام عن التورية والاستخدام »، وقال: «التورية والاستخدام، الذي تزل فيه أقدام الورود والإقدام، وتقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام... وأما فن التورية فما تنبه لمحاسنه لما تيقن وتيقظ... إلا المتأخرون من الشعراء والكتاب، ومن تضلع بالعلوم في كل باب»[7]، وقد أكثر الصفدي من هذه الحلبة المنوية: فسره[8] (المعنى القريب: الطائر، والمعنى البعيد هو: المسجد الأموي الذي يشبه بالنسر، وهو المراد)، جاثية، الغاشية، سبابة، شبابة[9]، شقيقة[10]... الخ.

---

(١) النص: ٢٠.

(٢) النص: ٢٣.

(٣) خزانة الأدب: ٢١، وانظر: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي): ٣٨١.

(٤) الأدب في العصر المملوكي: ٩٢/٢.

(٥) عصر الدول والإمارات (مصر - الشام): ٨٠٤.

(٦) انظر: المثل السائر: ٢٦٤/١ - ٢٦٥؛ عصر سلاطين المماليك: ٣٩٨/٦.

(٧) فض الختام: ١٢٠ - ١٢١.

(٨) النص: ١٥.

(٩) النص: ١٦.

(١٠) النص: ١٧.

وقد اتكأ الصفدي على التراث في مقامته فهو يستشهد بشعر من تقدمه من الشعراء، ويقتبس الآيات القرآنية كاملة أو بعضاً منها[1]، ويلاحظ أنه قد اقتصر في اقتباسه على القرآن الكريم ولم يقتبس من الأحاديث النبوية الشريفة، كما أنه ضمن مقامته كثيراً من منظوم غيره: «فليس تزور إلا في الظلام»[2]، من قول المتنبي:

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

و«سقيت الغيثَ أيتها الخيام»[3] من قول جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

و«تركتني أصحب الدنيا بلا أمل»[4] من قول ابن نباتة السعدي:

لم يبق جُودُك لي شيئاً أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

وفوق ذلك فإن حل المنظوم قد بدا جلياً في مقامة الصفدي، وهو يهدم البيت أو الاثنين من أساسهما، ويصوغ المعنى صياغة جديدة، كقوله: «فلا أبعد الله ما في بساتينها من شجرات، والا أقدر الكسوف على ما فيها من كواكب الثمرات، ولا دك هضبات أزهارها التي تضوع بطن نعمان برياها لا بمن مشى به من الخفرات»[5] من قول الشاعرين:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فابعدكن الله من شجرات

تضوع مسكاً بطن نعمان إن مشت به زينب في نسوة عطرات

ويلاحظ أن عمل الصفدي في ديوان الإنشاء المملوكي قد طبع أسلوبه ببعض اللوازم الديوانية الدائرة في المكاتبات الرسمية في ذلك الحين، وبخاصة عند تعرضه لذكر تنكز رجل الدولة في بلاد الشام: «وأشرف من زهيت به الدول والممالك... ونصر أعز

(١) النص: ١٦، ١٨.

(٢) النص: ٢٠.

(٣) النص: ٢٠.

(٤) النص: ٢٥.

(٥) النص: ١٣-١٤.

الله أنصاره...»[1]، «فما كان إلا أن صممت العزمات السيفية...»[2].

النسخ المعتمدة والمنهج المتبع في تحقيق نص المقامة:

اعتمدت في تحقيق نص مقامة الصفدي الأصول التالية:

- السفر الثاني عشر من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، مخطوط آياصوفيا رقم ٣٤٢٥، وقد أورد العمري نص المقامة عند ترجمته للصفدي، وتقع هذه المقامة في الورقات ١٨٩ب-١٩٣أ، ومتوسط عدد سطور الصفحة الواحدة ٢٣ سطراً، وعدد الكلمات في السطر الواحد ١٢ كلمة تقريباً، وهي مكتوبة بخط نسخي واضح، ولم يذكر في هذه النسخة اسم ناسخها أو تاريخ نسخها، وعليها تمليك يرجع إلى القرن الثامن الهجري، ورمزها في الحواشي (ص)، وقد اتخذتها أصلاً في تحقيق النص.
- السفر الثامن من مسالك الأبصار، مخطوط أحمد الثالث، رقم ٢٧٩٧، ويشتمل هذا السفر على المقامة كاملة، وقد وردت هذه المقامة في الصفحات ١٧٨-١٨٦، ويبلغ عدد السطور في الصفحة الواحدة ٢٣ سطراً، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد ١٠ كلمات، وخطها واضح، وناسخها وتاريخ نسخها غير مذكورين، ورمزها في الحواشي(ح).
- نسخة الاسكوريال من مقامة «رسف الرحيق». ورقمها (٥٢٤)، وهي ضمن مجموع غير مرقم، وتقع هذه النسخة في ٧ صفحات، ولم تشتمل على اسم الناسخ أو تاريخ النسخ، وهي كثيرة السقط والتحريف، ويبدو أن ناسخها قد اختصرها من نص المقامة الكامل، ولكنها نافعة في تصحيح رواية بعض الكلمات ، ورمزها في الحواشي(س).
- الجزء الأول من مسالك الأبصار، وقد نشره أحمد زكي بمصر سنة ١٩٢٤م، وقد اشتمل هذا الجزء على بضعة عشر سطراً من هذه المقامة.

أما المنهج المتبع في تحقيق هذا النص فإنني اتخذت من نسخة آياصوفيا أصلاً لقدمها

---

(١) النص: ٢١-٢٢.

(٢) النص: ٢٣.

وقلة تصحيفاتها، وقابلت عليها النسخ الأخرى، وأثبت الفروق بين النسخ في الحواشي، وإن صحت لدي قراءة نسخة غير الأصل أثبتها في المتن، وقد حققت الهمزات المسهلة.

وقمت بشرح واف لغريب المقامة، وعرفت بكل ما يحتاج إلى تعريف من مواقع وأسماء وأحداث، وخرجت ما في المقامة من آيات وأمثال وأشعار.

مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق[1]

حكى شعلة بن أبي لهب عن أبي الزِّناد شهاب أنه قال:

لم تزل أذني مُتَشنّفة[2] بأوصاف دمشق، متلذذةً بما للأقلام[3] في ذكرِ مَحاسنِها من التّعليقِ والمَشْق[4] حتى رأيتُ الحَزْمَ، شَدّ[5] الكُورَ[6] إليها والحُزُم[7]، فأزمعتُ السَّيرَ، ولم أزجرِ[8] الطيرَ، وقطعتُ أديمَ الأرض بالسَّيرِ، وركبتُ إليها مَطا الشّوقِ، قبلَ مَطايا[9] السُّوق، ولم يلتفتِ القلبُ إلى الوطنِ، ولا حَنَّ النَّجِيب[10] إلى العَطَن[11]، حتى[12] بلغتُها بعدَ مُكابدةِ السُّرى، وإثارة العَجاجِ من الثَّرى، فلما حَللتُ مَغنَاها وجدتُها:

---

(١) في الأصل (ص)، (ح): «مقامة أنشأها في الحريق الذي اتفق بدمشق سنة أربعين وسبعمائة وسماها رشف الرحيق في وصف الحريق وهي حكى...»، وفي (س): «مقامة تسمى رشف الرحيق في وصف الحريق للصلاح الصفدي عفا الله عنه».

(٢) متشنفة: لابسة للشّنَف وهو قُرط أوحليّ يوضع في أعلى الأذن (لسان العرب: شنف).

(٣) في الأصل (ص)، (ح): «الأقلام»، والمثبت ما ورد في (س).

(٤) المشْقُ: السرعة في الكتابة، ويقال: «قلم مَشاق: سريع الجري في القِرطاس. ومشقَ الخط يمشقُه مشقاً: مده، وقيل: أسرع فيه» (لسان العرب: مشق).

(٥) في الأصل (ص): «سد»، والمثبت ما ورد في (س)، (ح).

(٦) الكُور: رَحْل الناقة (لسان العرب: كور).

(٧) الحُزُم: جمع حِزام، والحِزام للسرج والرحل (لسان العرب: حزم).

(٨) الزجر للطير هو «التيمن والتشاؤُم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح، وهو نوع من الكهانة والعيافة» (لسان العرب: زجر)، وانظر: مجمع البلاغة ٨٢١/٢؛ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣٠٧/٣.

(٩) المَطايا: جمع المَطِيّة وهي الناقة التي يركب مَطاها أو البعير يمتطى ظهره (لسان العرب: مطا).

(١٠) النّجِيب: القوي الخفيف السريع من الإبل (لسان العرب: نجب).

(١١) العَطَن للإبل: «كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض» (لسان العرب: عطن).

(١٢) بدأ سقط في (س).

بَلَدٌ أعارتْهُ الحَمامةُ طوقَها
وكَساهُ حُلَّة ريشِهِ الطَّاووسُ[1]
وكأنما الأنهارُ فيه سُلافةٌ
وكأن ساحاتِ الدِّيارِ كؤوس

«فألقيتُ العصا[2]» في ساحتها، وألفيتُ زوالَ التعبِ في مُصافَحةِ رَاحتِها[3]، فما سرتُ فيها إلى روضٍ إلا وأجلسني من النرجِسِ على أحدَاقِه، وقام السَّرو من السُّرور بين يديّ على ساقة[4]، وجري الماءُ في خِدمتي لكرم أخلاقِه[5]، وظلَّلني الدوحُ[6] لطيبِ أعرَاقِه، ومدَّ الغصنُ لي سُتُورَ[7] أوراقِه، وغنَّى[8] لي الحَمامُ على عُودِة ولو تأنى أو تأبى جَرْه بأطواقه[9].

قال: فشفيتُ سَقَمي بنسيمها العَليل، واستروحتُ إلى ما نقله عن بَانهِ[10] وبِنَفسَجه لا إلى ما يَتحملُهُ من الإِذْخِرِ[11] والجليل[12]، وخلتُ أنه بلُطفِ مسِّه يَلينُ له

(١) البيتان لابن اللبانة الأندلسي (شعر ابن اللبانة: ٥٥؛ خريدة القصر-قسم الأندلس والمغرب-: ١٣٨/٢؛ المغرب في حلى المغرب: ٤٦٦/٢)، وهما لابن حمد يس الصقلي (ديوانه: ٥٥٣)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) من قول الشاعر (وفيات الأعيان: ٢٣٤/١، ٤٧٥، ١٥٤/٣):

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

(٣) انتهى سقط (س).

(٤) في (س): «سياقه».

(٥) في (س): «أحداقه».

(٦) في (س): «الروض» ولعله صواب.

(٧) في (س): «ستاير».

(٨) بدأ سقط في (س).

(٩) طوق الحمامة: الخضُرة أو الحمرة المحيطة بعنقها، انظر: طوق الحمامة: ٢٠.

(١٠) البان: شجر يسمو ويطول كالائل في استواء، أوراقه هدب، وثمرته تشبه قرون اللوبياء، وفيها حب، إذا انتهى انفتق وانتثر منه حب أبيض، ومنه يستخرج دهن البان. وانظر: المعتمد في الأدوية المفردة: ١٧.

(١١) الإذخر: حشيش طيب الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب (لسان العرب: ذخر).

(١٢) في الأصل (ص)، (ح): «الجليل» ولا معنى لها في السياق، ولعله: الأُثيل. وهو منبتُ الأراك (لسان العرب: أثل).

الجَنْدَل، وجُننتُ[1] بعَرفِه[2] المَنْدَلي وماَ رأى الناس من جُنَّ[3] بالمَنْدَلِ[4]، وبرّدتُ بأنفاسِه حَرَّ الصبابةِ والجَوَى[5]، وقُلتُ[6]:

أضحَى نَسيمُ دمشقٍ حيّاها الحَيا
يمشي الهُوَيْنا في ظلال حِمَاها[7]
فكأنّهُ[8] من مائِها وهِضَابها
ما دَاس إلا أعيُناً وجِباَها/(١٨٩/ب)

وقطعتُ بها زمناً ألذّ من وصَالِ الحَبيبِ، وأشهى إلى النَّفسِ[9] من التشفي بأذى الرقِيب[10]، فلا[11] أبعد اللّه ما في بساتِينها من شَجرات[12]، ولا أقدر[13] الكسوف

(١) في (ح): «وجنبت» وهو تحريف.

(٢) المعنى من قول الشاعر سيف الدين بن المشد (خزانة الأدب وغاية الأرب: ٤٧٦)

مسكيةُ الانفاس تملي الصبا عنها حديثاً قط لم يملل
جننت لما أن سرى عرفها وما نرى من جن بالمندل

(٣) في الأصل (ص): «حسن» ولعله تحريف، والمثبت ما ورد في (ح).

(٤) المَنْدَل: عود طيب الرائحة منسوب إلى مَنْدَل وهي مدينة بالهند. انظر: المختار من شعر بشار: ٩٧-٩٨.

(٥) انتهى سقط (س).

(٦) في (س): «وداويت ممدود الهوى مقصور الهوى وفيه قلت» وهي زيادة غير جلية المعنى، ويبدو أن سقطا قد اعتراها.

(٧) البيتان لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، انظر: الغيث المسجم في شرح لامية العجم: ١١٣/١، خزانة الأدب وغاية الأرب: ٣٠٧.

(٨) في (س): «وكانه».

(٩) سقط من (س): «النفس من».

(١٠) عن الرقيب وما قيل فيه من أشعار، انظر: الزهرة: ١٤٦/١-١٥٤.

(١١) سقط من (س): «فلا... الحفرات فإنها».

(١٢) من قول الشاعر:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنىً فابعدكُنَّ الله من شجرات

انظر: مجمع البلاغة: ٤١٠/١؛ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء: ٥٥٥/٢.

(١٣) في (ح): «قدر».

على ما فيها من كَواكب الثَّمرات، ولا دَكَّ هَضباتِ أزهَارِها التي تَضوّعَ بطنُ[1] نَعْمانَ[2] برّياهَا لا بمن مَشى بهِ من الخَفِراتِ فإنها[3]:

شَـوقـتنَا إلـى الجِنـانِ فَـزِدنـا
فـي اجـتِنابِ الـذُّنـوبِ والآثـام[4]

قال[5]: ولازمتُ جَامِعَها الذي تحيّرتِ العُقُولُ في تكوينِه وكُنهه، وحُسنِه الذي لم يكنْ فيه عَيب سوى أنه لم تقع العينُ على شَبهِه، ولله درّ من نظَم فيه حين قال فيه[6]:

دمـشـقُ لـهـا مـنـظـر رائـق وكـل إلـى وصـلـهـا[7] تـائـق
وكـيـف يـقـاس بـهـا بـلـدة أبـي الـلـه والجامـع الـفـارق

فإنه يُوقظُ النائم، بحُسنِ رُخَامه القائم، وتجلو بهيمَ الدُّجى حِصة الفجر من حُصّه[8]، وتروي لك زخرفته حديث الحسن[9] بفصه[10]، كم زهرت فيه ليلةُ

---

(١) من قول محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي في زينب أخت الحجاج بن يوسف الثقفي:

تضوع مسكاً بطن نَعْمَان إن مشت به زينبٌ في نسوةٍ عَطرات

انظر: العقد الفريد: ٣٢٤/٥؛ الكامل: ٦٢٨/٢-٦٢٩؛ نهاية الأرب: ٢٧٢/٤؛ مجمع البلاغة: ٦٢٤/٢؛ المختار من شعر بشار: ١١٦.

(٢) نَعْمانُ: واد قرب مكة، أو قريب من الفرات على أرض الشام قريب من الرحبة، أو قرب الكوفة من ناحية البادية، انظر: معجم البلدان: ٢٩٣/٥-٢٩٤.

(٣) انتهى سقط(س).

(٤) البيت للبحتري (ديوانه ٢٠٠٦:٣).

(٥) بدأ سقط في (س).

(٦) البيتان بلا عزو في: مطالع البدور في منازل السرور: ٢٨٨/٢؛ وعزاهما عبد الغني النابلسي إلى صلاح الدين الصفدي، انظر: نفحات الأزهار: ١٩٣.

(٧) في مطالع البدور: ٢٨٨/٢: «حسنها».

(٨) الحُصّ: بمعنى الورس، ويقال: هو الزعفران (لسان العرب: حصص)، ولعل المقصود هنا الرخام الملون، انظر: مسالك الأبصار: ١٨٥/١، ١٩٦، رحلة ابن جبير: ٢٤٠.

(٩) يقول الثعالبي في ثمار القلوب: ٥٢٥: «مسجد دمشق: هو أثر بني أمية المضروب به المثل في الحسن... وما رأى الراءون ولا سمع السامعون بأحسن ولا أجل منه».

(١٠) الفصُّ: فَصُّ الأمر أو الشيء: أصله وحقيقته وكنهه (لسان العرب: فصص).

النِّصف[1] من ذُبَالة[2] هي نجم توقد، وكم دارَ به دولابٌ كانت قناديلُهُ[3] تدور مثل الفَرقد[4]، وكم طلع في سماء صحنه من ثريا، وكم تمنى القمر لو كان بين[5] نجومه فما اتفق له ذلك ولا تهيا، وكم جليت عروسه في عقود وقود[6]، وكم تمتعتِ الأبصارُ فيه بوجوهٍ تُخجِلُ البدرَ في لَيالي السُّعود[7]، وكم فيه عَمودٍ قامَ على قَاعدةٍ، وكم به من مَنْجُور[8] كَغُصونِ أوجه العَجائز وأزرَاره[9] ناهِدةٌ، وكم من أعطافٍ رؤيت[10] في صَحْنه[11] مَائدةٌ، وكم[12] من طائرٍ لرفعِ نَسرهِ[13] مَخفوض، وكم حُسن بناءٍ عند بنائه يعُربُ أنه مَرفوضٌ، كم أظهرت الصُّناع فيه بدائعَ لا يدعيها غَيرُهم ولا يَتعاطى، وكم أبرزوا فيه من مُعجزٍ؛ لأنهم جعلوا الحجارةَ أوراقاً، والرُّخام[14] أخياطاً.

---

(١) لعله يقصد ليلة النصف من شعبان.

(٢) في (ص)، (ح): «دبالة»، وأثبت الصواب، والذُّبالة: الفَتيلة التي تسرج (لسان العرب: ذبل).

(٣) انظر: مسالك الأبصار: ١/١٩٤، ١٩٧.

(٤) انتهى سقط (س).

(٥) في (س): «من» ولعله صواب.

(٦) في الأصل (ص): «وقود»، والمثبت ما رسم في (س)، (ح).

(٧) السُّعود: الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد كذا. (لسان العرب: سعد)، وبعدها في (س): «وكم من ملح له زائدة».

(٨) منجور: من النَّجر وهو عمل النَّجار منحتُه (لسان العرب: نجر).

(٩) الأزْرَار: الخشبات التي يدخها فيها رأس عمود الخباء (لسان العرب: زرر)، والمراد هنا أعمدة المسجد. انظر: مسالك الأبصار: ١/١٨٨.

(١٠) في (س): «رتبت» ولعله صواب.

(١١) وصف الرحالة ابن بطوطة في رحلته: ١/١٠٤ صحن المسجد الأموي قائلاً: «وسعة الصحن مائة ذراع، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسناً، وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا، فمن قارىء ومحدث... ».

(١٢) بدأ سقط في (س).

(١٣) يقول ابن جبير في رحلته: ٢٣٧: «وأعظم ما في المسجد المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه، سامية في الهواء... فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً، يشبّهه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه...»، وانظر رحلة ابن بطوطة: ١/١٠٦؛ مسالك الأبصار: ١/١٠٦.

(١٤) حول ما وصف به جمال رخام المسجد الأموي بدمشق، انظر: مسالك الأبصار: ١/١٨٥، ١٩٢-١٩٥؛ الدراس في أخبار المدارس: ٢: ٣٨٢، ٣٩٤-٣٩٦، ٤٠٨.

قد عمَّر اللّٰه تعالى[1] أوقاته بالذكر، وأراحَ قَلبَ من يَراه من الهمّ وأراح عنه الفكر[2].

قالَ: فلما رأيتُ مَجموعَه المُختَار، وأن العيونَ تودُّ لو نُسجَ[3] له من شَعر جُفونِها أستار، قُلت[4]:

تقولُ دِمشقٌ إذْ تُفاخِرُ غيرها
بجامعها[5] الزاهي البديع المُشيَّدِ
جرى لتناهي[6] حُسنه كلُّ جَامعٍ
«وما قصبات[7] السّبقِ إلا لِمَعبدي»[8]

قال: فبينا نحن ذات ليلةٍ وقد وردنا حمى المضَاجع، ودخل ضيفُ الطِّيفِ على مُقلةِ الهَاجع، وإذا بالأصواتِ تَعجُّ، والدعوات تَلجُ أبواب السماء وتَلجُّ:

فلو[9] نشدتْ نَعَشاً هناك بَناتُه[10]
لماتَ ولم يُسمع لها صَوتُ مُنشِد

---

(١) سقطت من (ح).

(٢) انتهى سقط (س)، وفي (ح): «وأراج» بدل «وأراح» وهو تحريف.

(٣) في (س): «تنسج».

(٤) بدأ سقط في (س)، والبيتان لصلاح الدين الصفدي، وانظر: الغيث المسجم: ١/١٢٥؛ خزانة الأدب وغاية الأرب: ٣٠٧؛ نزهة الأيام في محاسن الشام: ٤٦-٤٧.

(٥) في: نزهة الأنام؛ خزانة الأدب: «بمعبدها»، وفي خزانة الأدب: «الرفيع» بدل: «البديع».

(٦) في: خزانة الأدب؛ الغيث المسجم: «لياهي»، وفي: نزهة الأنام؛ خزانة الأدب: «معبد» بدل: «جامع».

(٧) في الأصل (ص): «قصبا» والزيادة من (ح)؛ خزانة الأدب؛ الغيث المسجم؛ نزهة الأنام.

(٨) في (ح): «لمعيدي» وهو تحريف، وفي خزانة الأدب؛ نزهة الأنام: لمعبد، وعجز البيت من قول الشاعر:

أجاد طويس والسريجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

انظر: صبح الأعشى: ٢/٢٩٧.

(٩) سقط البيت من (س)، ولم أجده في المصادر التي وقفت عليها.

(١٠) بناتُ نعِش: سبعة كواكب: أربعة منها نَعْش لأنها مُربّعة، وثلاثةٌ بنات نَعشٍ (لسان العرب: نعش)، وفي (ح): «له» بدل: «لها».

فسألتُ[1] عن[2] الخبر ممن عبر[3]، فقال: إن الحريقَ وقعَ قريباً من الجامع، وانظر[4] إلى سَبِيجٍ[5] الجو كيف انتشرت فيه عقائق[6] اللهب[7] اللامع،فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم[8]، والقلوب ذائبة بتلك النار، كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلماء[9] معصفراتِ عصائبها[10]، وصعدت إلى عنان[11] السماء عذبات ذوائبها.

ذوائب[12] لجّتْ في عُلُوٍّ كأنّما
تحاولُ ثأراً[13] عند بعض الكواكبِ

وعلَت في الجو كأنها أعلامُ مَلائكةِ النّصرِ، وكان الواقفُ في الميدان يراها وهي «تَرْمي بشَرَرٍ كالقَصْرِ»[14]، فكم زُمرٍ[15] أضحت لذلك الدُّخانق جاثية، وكم نفس

(١) بدأت القطعة الصغيرة التي أوردها العمري من هذه المقامة، انظر : مسالك الأبصار: ٢٠١/١.

(٢) سقطت من مسالك الأبصار: ٢٠١/١؛ (س).

(٣) في مسالك الأبصار: ٢٠١/١: «غبر».

(٤) في (س): «فانظر».

(٥) في الأصل (ص)، (ح): «نسج» ولعله صواب، وفي مسالك الأبصار: ٢٠١/١: «شبح»، والمثبت ما ورد في (س)، والسَّبِيجُ: كساء أو بردة فيها سواد وبياض (لسان العرب: سبج).

(٦) العقَائق: جمع عقيق وهو خرز أحمر تتخذ منه الفصوص (لسان العرب: عقق).

(٧) في (س): «الذهب» ولعله صواب.

(٨) انظر: الوافي بالوفيات: ٣٢٧/١.

(٩) في: مسالك الأبصار: ٢٠١/١؛ (س): «الظلام» ولعله صواب.

(١٠) في: مسالك الأبصار: ٢٠١/١: «ذوائبها»، وسقطت: «معصفرات» من (س).

(١١) سقطت من مسالك الأبصار: ٢٠١/١.

(١٢) البيت بلا عزو في مجمع البلاغة ٢٣١/١؛ صبح الأعشى: ١٩٢/١٤، ٢٩٦، ورواية الصدر في مجمع البلاغة: «معال تمادت في العلو كأنما»؛ وفي صبح الأعشى: ١٩٢/١٤: «فعالُ تمادت في العلو كأنما»؛ وفي صبح الأعشى: ٢٩٦/١٤: «إذا أقلعت لجّت عُلُوا كانما».

(١٣) في الأصل (ص)، (ح): «ناراً» ولعله تحريف، والمثبت ما ورد في (س)، مسالك الأبصار: ٢٠١/١، مصادر تخريج البيتين.

(١٤) من الآية: ٣٢ من سورة المرسلات.

(١٥) في (ح): «زمن» وهو تحريف، وزمر: جماعات (لسان العرب: زمر).

كانت في النازِعات وهي تتلو: «هل أتاك حَديثُ الغاشية»[1].

ولم[2] تزل النار تأكلُ ما يليها، وتُفني ما يستفِلها ويعتليها، إلى أن ارتقت[3] إلى المأذنة الشرقية،ولعبت ألسنتُها المسودّةُ في أعراضِ أخشابِها النقيةِ، وثارت إليها من الأرض لاخذ الثأر، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء: «كأنه علم في رأسه نار»[4] فَنُكِّست وكانت للتوحيد سَبّابة، ولمعبدها[5] المطرب شبّابة، وابتُلي رأسها من الهدم[6] والنار بشقيقة[7]، وأدار الحريق على دائرها رحيقَهُ:

وبالأرضِ[8] من حُبِّها صُفرةٌ
فما ينبتُ الروضُ[9] إلا بَهاراً

وترقى إليها أولو العزم من النظارة، وصبروا[10] على النار والشَّعَث[11] بعد النعيم والنضارة، وكادت نارها تكون كنار القيامة[12]، «وقُودُها النارُ والحِجَارة»[13]، هذا

(١) الآية: ١ من سورة الغاشية.

(٢) سقط من (س): «ولم... النقية».

(٣) في مسالك الأبصار: ٢٠١/١: «ارتقت»، وفيه: «المنارة» بدل: «المأذنة».

(٤) من قول الخنساء (اليوان: ٣٠٥):

أغرُّ أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(٥) سقط من (س): «ولمعبدها المطرب شبابة».

(٦) في (س): «النار والهدم».

(٧) الشقيقة: ذكر القوصوني في قاموس الأطباء: ٣٠٤/١-٣٠٥: «الشقيقة وجع في أحد شقي الرأس، ويهيج دواراً غالباً هيجاناً شديداً لأدنى سبب، وسميت شقيقة لاختصاصها بشق، وإنما خصت به لأن الرأس منقسم بالغشا الغليظ إلى قسمين».

(٨) في (س): «وفي الأرض»، والبيت لسليمان بن الخضر الطائفي. انظر: دمية القصر وعصره أهل العصر: ٨٧/١.

(٩) في دمية القصر، (س)، مسالك الأبصار: ٢٠١/١: «فما تنبت الأرض».

(١٠) سقط من (س): «وصبروا... النظارة».

(١١) الشَّعث: تفرق الأمر، والشَّعِث: المغبرُّ الرأس، المنتف الشَّعر، والمراد هنا الدخان المتصاعد. (لسان العرب: شعث).

(١٢) رسمت في (ص)، (ح): «القيمة»، والمثبت ما رسم في (س).

(١٣) من الآية: ٢٤ من سورة البقرة، وفي (س): «الناس» بدل: «النار» ولعله صواب.

وبنفسج الظلام يذوى، ونَيلَوْفَر[1] النار يشب على الماء ويقوى[2]، حتى نَثرت غُصونُ ذَوائبِ النار (جُلّنار)[3] شررَها في النواحي، وظننا الدُّخانَ رَوضةَ سَوسنٍ تخلّلها[4] نَرْجِس وأقاحي، وعقد الدخان سماء أخرى، وأطلع الشرارُ فيها كَواكبَ زُهرا.

وكان[5] أهلُ دمشق دعوا طارق النيل والفرات ليقرى، وخافوا ضَلالَهُ فرفعوا له من النار في الظلماء الويةً حمرا، إلى أن أتاها البحر[6] لا زال نصرُه عَجاجَاً[7]، ولا برحت سيوفه تكاثر البحار[8] أمواجاً، فانكشفت لما أن رأتَ من وجهه سِراجاً وهاجاً، وطفيت لما أن رأت جوده عذباً فراتاً، وبأسه ملحاً أجاجاً، وكاثرها[9] بهمم أمرائه، فأحكم إخمادها، وتلقى بصدره من خطب الزمان ما دهى.

ولما طلع في روض السماء يَاسمينُ النهار، وعاد إهْلِيلَجاً[10] ما رُؤي بالليل من الجُلّنار، وقف النادبون، على الرسوم، ورأوا صُنعَ النارِ التي عكست نارَ الآخرة، فكان

---

(١) في الأصل (س)، (ح): «ولينوفر» وكلاهما تحريف، وأثبت الصواب، والنَّيلوفَر: ريحان ينبت في المياه الراكدة، وهو فارسي معرب. انظر: قاموس الأطباء: ٣٣٣/١؛ (القاموس المحيط: نفر).

(٢) في (س): «يفور».

(٣) زيادة من (س)، والجُلّنار: زهر الرمان، وهو معرب، انظر: (القاموس المحيط: جلنر).

(٤) بعدها في (ح): «نرجس وأقاحي وقعد الدخان».

(٥) في (س): «فكان».

(٦) المقصود هنا نائب الشام الأمير سيف الدين تَنكِز، الذي كان نائباً لدمشق مدة ٢٨ سنة، وكان محبوباً عند أهل الشام، إلا أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ألقى القبض عليه، وقتله بالاسكندرية في سنة ٧٤٠هـ، وقد ترك أثاراً عظيمة بدمشق ما زال بعضها قائماً. انظر: أعيان العصر: ورقة: ١٤٣-١٤٥؛ ولاة دمشق في عهد المماليك: ١٥٦-١٧٩.

(٧) العَجيج: الصباح ورفع الصوت والجلبة، ويقال: نهر عَجّاج: كثير الماء، والمراد هنا تكاثر انتصاراته واشتهار أمرها (لسان العرب: عجج).

(٨) في (س): «البحر»، وبعدها في (س): «فانكشفت» بدل: «فانكشفت» ولعله صواب.

(٩) سقط من (س): «وكاثرها... دهى»، وفيها: «لما رأت» بدل: «لما أن رأت».

(١٠) في الأصل (ص)، (ح): «أهليجاً» ولعله تحريف، والمثبت ما ورد في (س)، والإهِليلج: نبت، وهو فارسي معرب. انظر: قاموس الأطباء: ١٠٢/١.

«لكل مكان جُزءٌ مقَسوم»[1]:

فلم يَدرِ رَسمُ الدار كيف يُجيبنا

ولا نحنُ من فَرطِ الجَوى كيف نَسألُ[2]

وأصبحَ بَابُ السّاعات[3] وهو من آيات[4] الساعة، وخلت مَصاطب[5] الشّهودِ من السُّنةِ والجَمَاعة، وعادت الدَهشَة[6]، وقد آل أمرُها إلى الوحشَةِ، ومُحسنها[7] البديعُ وقد ثَلّت النار عرشَةُ، كأن لم أَرَ بها سَميراً، ولا شاهدتُ من بنائها وقِماشِها «جنَّةً وحَريراً»[8]، قد[9] سلط الله عليها النار التي ما لها ردّة، وأحرق أزهار ثيابها الملونة بَوردةٍ[10]، ونظرت إلى الوراقِين[11] وقد زال ما بها من الطرائفِ، وطافَ عليها من

(١) من قوله تعالي: «لها سبعةُ أبواب لكل باب منهم جُزءٌ مقسوم» الآية: ٤٤ من سورة الحجر.

(٢) البيت بلا عزو في الوافي بالوفيات: ٣٩٤/٦؛ مسالك الأبصار: ٢٦٩/١٢، وفي مسالك الأبصار: «الأسى» بدل: «الجوى».

(٣) في الأصل (ص): «الساعا» والزيادة من (ح)، (س). باب الساعات: ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة: ٧٣: «أخبرني أبو محمد بن الأكفاني عن أبي عبد الله بن أحمد بن زير القاضي قال: إنما سُمي باب الساعات لانه كان عمل هناك بنكام (آلة لحساب ساعات الليل والنهار) الساعات، يُعلم بها كل ساعة تمضي من النهار، عليها عصافير من نحاس وغراب وحيّة من نحاس، فإذا تمت الساعة خرجت الحية، فصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة»، وانظر: مسالك الأبصار: ١٩٤/١، ١٩٨؛ رحلة ابن بطوطة: ١٠٧/١؛ رحلة ابن جبير: ٢٤٣؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٣٨٧/٢؛ تاريخ دمشق: ٤٧/٢.

(٤) في (س): «أبواب» وهو تحريف.

(٥) مَصاطِب: جمع مِصطَبة، والمِصطَبة: مجتمع الناس، وهي شبه الدكان يجلس عليها (لسان العرب: صطب)، وقد وصف ابن بطوطة هذه المصاطب أو الدكاكين قبل وقوع الحريق بخمس عشرة سنة قائلاً: «وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول (يعني باب المسجد الأموي) دكاكين لكبار الشهود، ومنها دكان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة و الستة من العدول، والعاقد للأنكحة من قبل القاضي» (رحلة ابن بطوطة: ١٠٧/١)، وانظر: ثمرات الأوراق: ٣٩٢.

(٦) الدهشة: «قيسارية تجارية كانت داخل جيرون شرقي باب الجامع الاموي الشرقي، هناك دهشة ثانية كانت غربي الجامع الاموي أو قبلية لجهة الغرب» (القلائد الجوهرية: ١٢٧/١ - حاشية: ١)، وذكر ابن المبرد في نزهة الرفاق: ٢٢: «سوق الدهشة شرقي الجامع الأموي، يباع فيه آلات النساء من الثياب النفيسة ونحوها من لباسهن».

(٧) سقط من (س): «وحسنها البديع»، وفيها: «لم ير» بدل: «لم أر».

(٨) من الآية ١٢ من سورة الدهر.

(٩) بدأ سقط في (س)، وفيها: «مابها» بدل «بنائها».

(١٠) وَرْدَة: أي كلون الورد. انظر: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: ٣١٤.

(١١) الورّاقون: سوق الكتب، وكانت قريبة من المسجد الأموي والدهشة. انظر: البداية والنهاية: ٧٤/١٤؛ رحلة ابن بطوطة: ١٠٧/١؛ نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: ٢٢.

الدُّثور والخَرابِ طائف، فيا ضياع أوضاعها المكونة، ويا سواد وجوه أوراقها المُلونة، ولمحتُ اللَّبادِين[1] وقد صارت «كَالِعِهن المَنفُوشِ»[2]، ومُحيت بأيدي النارِ سُطورُ كلِّ خَاتم منقوش.

وأصبحَ أهلُها كالحَمائِم تَنوح[3] على أقفاصها، وتودُّ اللآلىء أنها لم تخرج إليهم من مَغَاصِها، فما منهم إلا رَبُّ نِعمةٍ سلُبت أصبحَ بعدَ الجَديدِ في خَلَقٍ، أو غني أمسى بعد ما ضمّ قفصه[4] يكدي في الحَلَق، وكادت الخضراء[5] تَذهبُ بالنار الحمراء.

قال: فلما رأيت تلك الأطلال الداثرة، ونسخ[6] هاتيك الظلال المتّصلة بالهاجرة، وخطوطها وزواياها كيف أحاط بها سوء الدائرة.

قلت[7] عند مشاهدة / (١٩١أ) تلك الحال في الحال:

حَريقُ دمشقٍ قد بدا لعياني
ليظهر لي عندَ البيانِ مَعاني
غدت نارُهُ في الجو تَعلو وترتَقي
كأنَّ لها عندَ النُّجومِ أماني

---

(١) اللبادين: سوق قرب المسجد الأموي تباع فيها الكتب والعطور وغيرها. انظر: نكت الهميان: ٢٢٠؛ الوافي بالوفيات: ٢٦٦/٤، ٣٤٩/٥؛ البداية والنهاية: ٧٤/١٤، ١٣٦.

(٢) من الآية: ٥ من سورة القارعة.

(٣) في (ح): «تتوج» وهو تحريف.

(٤) في (ح): «ففصه» وهو تحريف.

(٥) الخضراء: يقول ابن بطوطة في رحلته: ١٠٦/١: «سماط الصفارين، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي، من أحسن أسواق دمشق، وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ودور قومه، وكانت تسمى الخضراء، فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقاً»، وانظر: رحلة ابن جبير: ٢٤٢.

(٦) في (ح): «ونسيج» وهو تحريف.

(٧) في (س): «فقلت... ذلك الحال».

لقد ضوّأ[1] الآفاقَ لامعُ برقِها
وما كلُّ بَرق شُمتهُ[2] بيماني
وقد كاد يمحو[3] آية الليل ضَوءها
ويبدي نهاراً بعد ذلك ثاني
ونالت عنانَ الجو حتى رأيتُها
تصرّفُه[4] من تَحتها بعِنانِ
وطالت[5] إلى نهرِ المجرةِ في السما
لتقصد مشي[6] الحوتِ والسّرطان
فأبصر أهل النّيلِ لما ترفعت
نجومَ[7] شَرارٍ في سَماء دُخانِ
كأنَّ دخانَ النارِ عنبرُ[8] مَعرَك
وكلُّ شرارٍ فيه مثلُ سِنانِ[9]
ولو لم تكن نارَ الأعادي لما غدت
وجِناؤها بادٍ بكلِّ بَنانِ
ولا صبغت بالزّعفَرانِ قَميصَها
سُروراً ولا طالتْ بكلِّ لِسانِ

---

(١) في (ح): «ضوء»، وفي (س): «ضوايه».

(٢) في الأصل (ص)، (ح): «سمته» وهو تحريف، والمثبت ما ورد في (س)، وشام البرق: نظر إليه (لسان العرب: شيم).

(٣) في (س): «يمحو».

(٤) في الأصل (ص): «يصرفه»، والمثبت ما ورد في (س)، وبعدها في (س): في كفها».

(٥) في (س): «وطارت».

(٦) في الأصل (ص)، (ح): «شي»، والمثبت ما ورد في (س).

(٧) في (س): «بخفض».

(٨) في (ص)، (ح): «عنبرا».

(٩) في (س): «سناني».

قال: وما نفضَ الناسُ غبار ذلك الهدم، ولا رمادَ ذلك الصدّع الشّديدِ الصّدمِ، حتى وقع بالمدرسة الأمينية[1] حريق ثانٍ، ودهمت شَقراءُ النارِ دَهماءَ الظلام، ولم يوجد لعنانها ثانٍ، فجمعت بين عين الوداع وسين السلام، وكانت كحمى أبي الطَّيب «فليسَ تَزُورُ إلاَّ في الظَّلامِ»[2]، فيالسوق الكِفْت[3] كيف باد، وفتت الأكباد، عَلكت[4] النار لجمه. وكسفت نجمه، أين بأسُه الشديد، ومنافعه التي تبيد؟! سكت زُبَرهُ[5]، ورفع خبره.

ويالسوق الخيم[6] كيف ذهب، وعدم النصر على الكافرين «فتبت يدا أبي لهب»[7]، لقد تمسكت النار بأطنابه، وتجلد لها والنارَ تحت ثيابه[8]، وأمسى وكل عمود غصنه مهصور[9]، وكل خامٍ وهو على البلى مقصور، كأن الشاعر قديماً تخيل ما يحصل لها من الأُوامِ[10]، فقال: «سقيت الغيث[11] أيتها الخيام»[12].

---

(١) المدرسة الأمينية: بناها أمين كمشتكين المتوفي سنة ٥٤١هـ، وتقع قبلي الجامع الأموي. انظر: الأعلاق الخطيرة: ١٢٠؛ تاريخ مدينة دمشق: ٧٤/٢؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١٧٧/١.

(٢) من قول المتنبي (ديوانه: ٤/ ١٤٦):

وَزَائرتي كأنَّ بها حَياءً ... فليسَ تزورُ إلا في الظلام

(٣) الكِفتُ: القدر الصغير (لسان العرب: كفت)، وذكر الصفدي في ترجمته لعبد الرحمن بن أيوب المتوفى سنة ٧٣٣هـ أن دكانه كانت في الكفتيين، انظر: أعيان العصر: ٩٣/٢. ويفهم من النص هنا أن المقصود سوق السلاح الواقع قبلي الجامع الأموي. انظر: نزهة الرفاق: ٢٢.

(٤) سقط من (س): علكت... خبره».

(٥) زبَر: جمع زُبْرةٍ وهي القطعة من الحديد (لسان العرب: زبر).

(٦) لم أقف له على ذكر في المصادر التي رجعت إليها.

(٧) من الآية الأولى من سورة اللهب.

(٨) في (ح): «نيابه» وهو تحريف.

(٩) مَهصور: الهَصْر: عطف الشيء الرطب كالغصن وكسره، وقيل: هو عَطفك أيَّ شيء كان. (لسان العرب: هصر).

(١٠) الأُوام: شدة العطش (لسان العرب: أوم).

(١١) سقطت من (ح).

(١٢) من قول جرير بن عطية (ديوانه: ٢٧٨/١):

متى كان الخيام بذي طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام

وبالسوق القسي[1] كيف مُحي من الوجود ونسي؟ لم يبق لقوس[2] قلبها ، ولم يعطها لبَارِيها[3]، كأنما كان للنار عند القسي أوتار، أو كأن نسخها كان محقاً فجاءها بقلم الطُومار[4]، أو كأن امتهانها كان معلقاً بثلث[5] الليل[6] //(١٩١ب) بعدما رقت حواشيها، ولم يقع عليها غبار.

فكم قسي توفر من النار سهمها، وعظم بوهنها وهمها، وأقامتها النار بعدما كانت حنايا، وأفنت قرنها[7]، «وما اختلط بعظم أو الحوايا»[8]، لم تبطش ولها أيدٍ، ولم تهرب ولها أرجل، ولم تأن وهي مِرْنان[9]، ولم تدفع[10] الأذى عن نفسها ونفثها يقتل، ولم ينبسط لها إلى الدفع قبضة، ولم تصل إلى غرضٍ، ولم ينبض[11] لعِرق وترها نبضةٌ، قد قال لها لسان النار: هل سمعت بهذه الحادثة في مَلحمة[12] ابن عقب؟ أو اتصل

---

(١) لم أقف له على ذكر في المصادر التي رجعت إليها، ولعله من جملة سوق السلاح. انظر: نزهة الرفاق: ٢٢.

(٢) جاء في المثل: «أعط القوس باريها»، ويقول الشاعر:

يابارِي القوس بَرْياً لست تحسنها ... لا تفسدنها وأعطِ القوسَ باريها

انظر: مجمع الامثال: ٣٤٥/٢؛ شرح مقامات الحريري: ٢٤٠/١.

(٣) في (ح): لباريا ربها» وهي زيادة وتحريف.

(٤) قلم الطومار: يقول القلقشندي في صبح الأعشى: ٤٩/٣: «قلم الطُّمار: باضافة قلم إلى الطومار» والمراد بالطُّومار الكامل من مقادير قطع الورق.... قلم جليل... وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في الزمن المتقدم في أيام بني أُمية فمن بعدهم».

(٥) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: ٥٨/٣.

(٦) رسمت في (ح): «اليل».

(٧) في (س): «قربها» وهو تحريف، وبعدها في (ح): «ولما» بدل: «وما».

(٨) من الآية: ١٤٦ من سورة الأنعام.

(٩) مِرْنان: يقال: قوس مُرن ومِرْنان، من الرَّنين وهو الصوت الشَّجي، وقال أبو حنيفة: أرنَّتِ القوس وهو فوق الحنين. انظر: (لسان العرب: رنن).

(١٠) في (ح): «تدافع»، وفي (س): «تقبل» بدل: «يقتل».

(١١) في (س): «تبض» ولعله صواب.

(١٢) الملحمة: الوقعة العظيمة القتل (لسان العرب: لحم)، ويبدو أن لفظة ملحمة كانت تعني في عصر الصفدي الإخبار بما سيكون من الحوادث، انظر: الوافي بالوفيات: ١٦٤/٣. وملحمة ابن عقب: وهو يحيى بن عقب معلم الحسن والحسين رضي الله عنهما، منظومة لامية أولها:

رأيت من الأمور عجيب حالٍ ... لأسباب يسطرها مقالي

(كشف الظنون: ١٨١٨/٢).

بناؤها[1] بقوس السحاب[2]، فانتظره وارتقب، كيف غفلت عن هذه (الحادثة)[3] النّازِلة[4]، وأنت عُدةُ قوم (قَليلاً مِن الليلِ ما يهجعون؟!)[5]، وكيف نمتَ ولا عجبَ لمن نَعِسَ وهو ذو قُرون[6]؟!.

قال: فبينما هما في المناجاة، وتكرار المُحاجاة[7]، إذ جاء النارَ خَبرُ مَالك، وأشرف من زهيت به الدول والممالك، فجاسَ خِلالَ ضَرَامِها، ودخلَ لظاهاَ فتلَقتُه «ببردها وسلامها»[8]، وتبع أثرها الذي آثر اقتلاعه، واقتحَمها فتعلقت إذ تألقت في الجو والفرار قدام الملوك[9] طاعة، ولم يُر[10] تلك الساعة أحداً أقرب منه إليها، ولا أسلط سطاً منه عليها، رتب[11] في جهاتها مماليكه وأمراءه[12]، وصغار بنيه وكبراءه[13]، فهم قوم[14]:

إذا ركبوا زادوا[15] المواكبَ بَهجةً

وإن جَلسوا كانوا صُدورَ المَجالِسِ

---

(١) في (س): «بناها» وهو تحريف.

(٢) ذكر الثعالبي في ثمار القلوب: ٢٤-٢٥: «قوس الله: هي التي يقال لها قوس قُزح، ويشبه بها ما يقل لبثه ولا يدوم مكثه... وقد سماها الوأواء الدمشقي قوس السماء... وسماها سيف الدولة الحمداني قوس السحاب في قوله من جملة أبيات:

تُطرِّزها قوسُ السحاب بأحمرٍ على أصفر في أخضر إثر مُبيضِّ.

(٣) زيادة من (س).

(٤) النازلة: الشدة من شدائد الدهر تنزل بالناس (لسان العرب: نزل).

(٥) من الآية: ١٧ من سورة الذاريات.

(٦) بدأ سقط في (س).

(٧) المحاجاة: يقال: «حاجيتُه مُحاجَاةً وحِجاءً: فاطنته فحجوتُه، وبينهما أُحجية يتحاجون بها» (لسان العرب: حجا)، والمراد هنا توقع سبب النار.

(٨) من الآية: ٦٩ من سورة الأنبياء: «قلنا يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم».

(٩) كان الناس في دمشق يسمون سيف الدين تنكز نائب دمشق في ذلك الحين بملك الأمراء. انظر: رحلة ابن بطوطة: ١:١١٠.

(١٠) سقطت من (ح).

(١١) في (ح): «ونب» وهو تحريف.

(١٢) رسمت في (ح): «وامراوه»، وفي الأصل (ص): «وأمراه».

(١٣) رسمت في الأصل (ص)، (ح): «وكبراه».

(١٤) البيت بلا عزو في التحفة البهية والطرفة الشهية: ٤٦.

(١٥) في الأصل (ص): «ازدادوا»، والمثبت ما ورد في (ح)، التحفة البهية: ٤٦.

فلم تُر أسهل من خمودها، ولا أسرع من إبطالِ حَرَكَتِها وجُمودِهَا، ونصر أعزَّ الله أنصَارَه هذه الملة المحمدية، وحاز بهذه المنقبة الكَرامة الأحمدية[1].

ولما رأيت «مِسكَ هذا الختام»[2]، و «أن الجيشَ تَعالى وانحطَّ القَتَامُ»[3]، قلتُ:

جاءَ ليطفي النارَ من اسمُهُ
بَحرٌ فاخفى زَندَها الواري
ومن يكن بحراً فلا غرو أنْ
تطفى لَظى منه بتيارِ
وقامَ في اللّه لدفعِ الأذَى
مؤيداً بالقَدرِ الجبارِ
وغيرُ بَدعٍ أن يُردَّ الرّدى
بمُرهَفِ الحدينِ بَتارِ
لأنَّهُ سيفٌ ولم يُدخر
إلا لخطبٍ طَارقٍ طارِ
واقتحمَ النارَ بوجهٍ حَكى
بَدرَ الدُّجَى إذْ لاحَ للسَارِي

(١) الأحمدية: نسبة للمتصوف أحمد بن علي الرفاعي (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)، والرفاعية طائفة كبيرة من طوائف المتصوفة، وكانوا ياكلون الحيات، ويدخلون النيران المشتعلة، ويلبسون أطواق الحديد في أعناقهم، وقد أنكر عليه ابن تيمية ذلك ، وألف في كشف أحوالهم كتاباً سماه ب«كشف حال المشايخ الأحمدية وأحوالهم الشيطانية. انظر: السلوكُ لمعرفة دول الملوك، ق١ ج٢ ص٦١٤؛ أعيان العصر: ٧٠/١؛ مجموع فتاوي ابن تيمية: ٤٤٦/١١-٤٧٥؛ الإلمام بالأعلام: ٢٣٤/٥؛ الأعلام: ١٧٤/١.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة المطففين: «ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

(٣) من قول المتنبي (ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٧٢/٤):

ولو لم يَعلُ إلا ذو مَحلّ تعالى الجيش وانحط القَتامُ

فانظر إليه وهو في سطحها

تُشاهدْ[1] الجنَّة في النَّارِ[2]

قال: ولم يزل الناسُ من أمرِ هذه النار في قَلق، وحَدس نَفى عن قُلوبِهم القرارَ ورمى جفونَهم بالأرقِ، وحَنَق تَودُ[3] «الصبح لو تَنَفس»[4] والفجر معه لو انْفَلَق[5]، حتى أظهر اللّه تعالى أن النصارى قصدوا الجامع بذلك، وتخيلوا أن النار تلعب (في)[6] جوانب دِمشقَ وما الناس «إلا هالك وابن هالك»[7] وتوهموا أن فعلاتهم المذمومة[8] تغطي مساويها الليالي الحوالك[9]، فعل من صَوَّر الصّور بيدهِ وعبدَهَا، وكفرَ بالوحدانِية وجَحَدَها، وعكف على الخيانة والجناية[10] واعتمد على عقل أداه إلى أنَّ الواحد تعالى ثلاثة، فتهيب بعض الناس «رَميهم بهذا الحَجَر[11]، وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم وفَخَر، وخوّفَ بانتصارِ الفِرنج لأهل مِلّتِهم، وإزاحة عِلتِهم، وكَشفِ غُمتِهم، والأخذِ بثأر رِمتهم[12]، فقال[13] مَن صدق في إيمانه، وكان من أنصارِ الإسلامِ وأعوانِه:

---

(١) بعدها في الأصل (ص): «حدّ» وهي زيادة يختل بها وزن البيت.

(٢) انتهى سقط (س).

(٣) في (س): «نور» وهو تحريف، وبعدها فيها: «الصبح منه لوتنفس والفجر لو...».

(٤) من الآية: ١٨ من سورة التكوير: «والصبح إذا تنفس».

(٥) انْفَلَق: انشَقَّ (لسان العرب: فلق).

(٦) سقطت من الأصل (ص)، والزيادة من (ح)، (س)، وسقطت: «أن» من (ح).

(٧) من شعر أبي نواس (ديوان أبي نواس برواية الصولي: ٩٨٣):

ألا كلُّ حُرٍّ هَالكٍ وابنُ هالكٍ وذو نسَبٍ في الهالكين عَريق

(٨) في الأصل (ص)، (ح): «الذمومة» ولعله تحريف، والمثبت ما ورد في (س).

(٩) انتهت نسخة (س)، وختمت بقول الناسخ: «تم المجموع المبارك وصلواته على أشرف أنبيائه سيدنا محمد واله وصحبه وسلم».

(١٠) رسمت في الأصل (ص): «الخانه»، وفي (ح): «والخيانة».

(١١) يقول الزمخشري في أساس البلاغة: ١٥٥: «ومن المجاز: رُمي فلان بحجره إذا مُرن بمثله»، والمراد هنا اتهامهم ونسبة فعل الحريق إليهم.

(١٢) الرِّمةُ: العظام البالية، والجمع رمم (لسان العرب: رمم).

(١٣) هو أبو العلاء المعري (شروح سقط الزند: ٢٤٦/١)، وقد عقب التبريزي على هذا البيت قائلاً: «قيلت هذه القصيدة وملك الروم قد خرج إلى أرض المسلمين، وخاف الناس الذين قُربوا منه، فرحلوا عن أوطانهم، والمعنى أنّا لا يُحسن بنا ونحن عبيدُ الله أن نَفرق من عُبّاد المسيح».

أَعُبَّادَ المَسِيحِ يَخافُ صَحْبي
ونَحنُ عَبِيدُ من خَلَقَ المَسِيحَا

فما كان إلا أن صممتِ العزماتُ السيفية[1]، وعمت بإحسانها الشاملِ حتى خلّصتِ النفوس البَريةِ من هذه البرية، وأيقظت عينَ حَزمِها الرّاقِدة، «واسْتبدَّت مَرَّةً واحِدةً»[2]، ورسم بإمساك من أبرم هذا الأمر وحرَّره، وبيت[3] على فعله وقرره، فأقرّوا بما فَعَلوا غُمتهم، ووجدوا ما عملوا، فضربوا بِسياطٍ كَشَطت[4] غِلَظ[5] الغَلْطِ من جِلْدهم، وأوهنت قُوى شجَاعَتهم وجَلَدِهم، كم فيهم من أسود اللِّمة[6] فَتقَ جلدَهُ الشّيبُ، وخَط[7] وخَطَه[8] على جَنبِه ما كان مخبوءاً له في الغيب، وأقبل بعضُهم يُوَبِّخُ بعضاً فيما أشارَ ويَتبرَمُ هذا إذ يتبرأ ذلك من هذه الاثار، ويتسابون فيما بينهم (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أهلِ النار).

ولقد قلت فيهم عند التشفي، والانكفَا عن عِقابِهم بما يَكُفُ الحَنَقَ ويكفي:

حُرِثت جُنوبُهم وشُقت أرضُها
ليلاً فجادَ نَباتُها بشَقِيقِ[9]

(١) المراد سيف الدين تنكز نائب دمشق، وقد سبق التعريف به.

(٢) من قول عمر بن أبي ربيعة(شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٣٢١):

واستبدَّت مَرَّةً وَاحِدةً إنَّما العاجزُ من لا يستبد

(٣) في (ح): «وثبت» ولعله صواب.

(٤) كشط: كشط الغِطاء عن الشيء والجِلد عن الجزور والجلّ عن ظهر الفرس يكشِطُه كشطاً: قلعه ونزعَه وكشف عنه... زكشطت البعير كشطاً: نزعت جلده، ولا يقال سلخت (لسان العرب: كشط).

(٥) الغِلَظ: ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش، والغَلظ: من الأرض الصلب من غير حجارة (لسان العرب: غلظ)، وفي (ح): «غلط الغلط».

(٦) اللِّمّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوَفرة، وقيل: إذا ألم الشعر بالمنكب فهو لِمّة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن. (لسان العرب: لمم).

(٧) الوَخْط: هو فشُوُّ الشيب في الرأس (لسان العرب: وخط).

(٨) وخطَه بالسيف: تناوله من بعيد (لسان العرب: وخط).

(٩) لم أجد البيتين في المصادر التي رجعت إليها، وسقطت من (ح): «ليلاً».

وأُريدَ تَاريخُ الحريقِ فَخطَّهُ الـ

ـوالي[1] على أضلاعِهم بعَقِيقِ

ولما أُخذ سُحْتُ[2] أموالِهم، وصُرف في إيجادِ ما أعدَمُوه بفِعَالهم، نظر في سُوء مُنْقَلبِهم/ (١٩٢ب) ومَآلِهم، وتَمام المقَابَلة[3] على تَجنِيس[4] أعمالهم، وورد المرسُومُ الشريف[5] بتسميرِهم[6] على الجِمالِ، وإظهار ما لهذه المِلّة[7] القَاهِرة من العزِّ والجَمالِ، فقضى اللّه تعالى فيهم أمرَه، وجعلهم آيةً لأهل الصَّليبِ وعبرةً[8]، وأخرجوا وطباعُ الورى على عَدمِ رَحمتهم مَجْبُولةٌ، وقدموا في حَلقةٍ فخرجَ كلُّ واحدٍ منهم بجَملٍ وستِ فُحولةٍ، وأُقيموا رُقَباءَ للشّمس كالحِرباء[9] فليس لهم من دونها سِترٌ مُنْسَبل، وتنوع الناسُ في شَتمِهم، فقال: «أشبعتمونا سَبّاً ورُحْنا بالإبلِ»[10].

---

(١) الوالي: هو محمد بن بكتاش، كان مشداً بغزة، ثم ولي مدينة دمشق، وعرف بالأمانة والعفة والصلف، وفي أيامه وقع الحريق بدمشق، انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٥٥.

(٢) السُحْت: هو ما خَبُث من المكاسب وحرم، كثمن الكلب والخمر والخنزير (لسان العرب: سحت).

(٣) في (ح): «المقابلة» وهو تحريف، والمقابلة: يقول شهاب الدين محمود الحلبي في تعريفها: «وهي أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة فتأتي في الموافق بما وافق، وفي المخالف بما خالف... كقوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى»، انظر: حسن التوسل: ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) التجنيس والجناس والمجانسة بمعنى واحد، انظر: جنان الجناس: ٢٣؛ حسن التوسل: ١٨٣-١٨٤.

(٥) المرسوم الشريف: وثيقة تكتب، ويعلم عليها السلطان، وتكون بما يعمل في البلاد. انظر: صبح الأعشى: ٤/٢٩، ٥٨، ٧/٢١١-٢١٢.

(٦) التسمير: طريقة تعذيب في العصر المملوكي، وفيها «يعرى المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب، ويطرح على ظهر جمل، ... وربما طيف بالمحكوم عليه... على هذه الحال... ثم يأتي السياف فيضرب المحكوم عليه ضربة بقوة تحت السرة، تقسم الجسم نصفين من وسطه فتنهار أمعاؤه إلى الأرض. انظر: السلوك: ج١ ق٢ ص٤٠٤، حاشية رقم١؛ طومان باي آخر سلاطين المماليك بمصر: ٢٠٩؛ تكملة المعاجم العربية: ٦/١٤١.

(٧) سقطت من (ح).

(٨) في (ح): «وغيره» وهو تحريف.

(٩) لعله من قول الشاعر (مجموعة المعاني: ٤٧٥):

مستشرفاً للشمس منتصباً لها ... في أخريات الجذعِ كالحرباء

(١٠) جاء في المثل العربي: «أوسعتُهُم سَبّاً وأودوا بالإبل» بضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام. انظر مجمع الامثال: ٣/ ٤٢٦. ورسمت «سبا»في الأصل (ص): «نسيا»، والمثبت ما ورد في (ح).

انظُر إليهم في الجذوع كأنّهم
قد فوّقُوا يرمُونَ بالنُشّابِ[1]
أو عُصْبَةٌ عزَمُوا الرحيل[2] فنكسوا
أعناقَهم أسَفاً على الأحبابِ

وَطِيفَ بهم بَياضُ يوَمينِ، ثم أُنزلوا ليُجعَلَ كلُّ سَطلٍ[3] منهم دَلوينِ، فجُرِّدوا من ثِيابِهم، وجُمِعَ شَملُ السُّرورِ بتَمزِيقِ إهَابِهم:

ساقَهمُ البغيُ إلى صَرعةٍ للحَينِ لم تخطر على بَالِهم[4]
كم أمَّلوا المكروهَ في غيرهم فنالَهم مَكروه آمالِهم

«وسَبَقَ السَّيفُ فيهم العَذَل[5]»، وقال كلُّ مسلم لمصرعهم: «تركتني أصحبُ الدُّنيا بلا أمَلٍ»[6]، وبقيت أشلاؤهم طريحة الحَقِيرِ، وألقوا في «جهنم وبئس المصير»[7]. / (١٩٣أ).

(١) البيتان بلا عزو في الوافي بالوفيات: ١٠٣/١.

(٢) في المصدر السابق: ١٠٣/١: «الفراق».

(٣) السطل: إناء من نحاس أو شبهه، له عروتان يستسقى به ويحمل به الزاد. انظر: قاموس رد العامي إلى الفصيح: ٢٦٠.

(٤) لم أجد البيتين في المصادر التي رجعت إليها، ويبدو أنهما من شعر الصفدي.

(٥) مثل قاله ضبَّة بن أد لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم. انظر: مجمع الأمثال: ٩٧/٢.

(٦) من قول ابن نباتة السعدي (ديوانه: ٢٠٨/١):

لم يُبقِ جُودُكَ لي شيئاً أُؤمِّلُهُ تركتني أصحبُ الدنيا بلا أمَلِ

(٧) من الآية: ٨ من سورة المجادلة.

مصادر ومراجع البحث

- **الأدب في العصر المملوكي.** لمحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- **أساس البلاغة.** لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
- **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.** لعز الدين محمد بن علي المعروف بابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٤٨م). تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٦م.
- **الأعلام.** لخير الدين الزركلي. ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
- **أعيان العصر وأعوان النصر.** لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، صورة عن مخطوطة عاطف أفندي، مكتبة السليمانية ، رقم ١٨٠٩، معهد تاريخ العلوم الإسلامية ، جامعة فرانكفورت، ١٩٩٠م.
- **الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية.** لمحمد بن القاسم النويري (ت بعد ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م). تحقيق: عزيز سوريال عطية. ط١، حيدر آباد الدكن، الهند، ٩٧٣م.
- **البداية والنهاية.** لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م.
- **بلوغ الأرب في معرفة العرب.** محمود شكري الألوسي (ت١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، شرح وتصحيح: محمد بهجة الأثري. ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- **تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي).** لعمر موسى باشا، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩م.
- **تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب.** لأبي حيان الأندلسي. تحقيق: سمير المجذوب، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
- **التحفة البهية والطرافة الشهية.** مجموعة من المؤلفين. ط١، دار الآفاق، بيروت، ١٩٨١م.
- **تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجاب.** لداود بن عمر الأنطاكي (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م). المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
- **تكملة المعاجم العربية.** لرينهارت دوزي. ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.
- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.** لأبي منصور عبد الملك الثعالبي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- **ثمرات الأوراق.** لتقي الدين أبي علي بن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م). صححه وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧١م.
- **جناس الجناس.** لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م). تحقيق: سمير حسين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- **حسن التوسل إلى صناعة الترسل.** لشهاب الدين محمود الحلبي (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م). تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٠م.
- **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس).** لعماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). تحقيق: محمد المرزوقي ومحمد المطوي والجيلاني يحيى، ط٢، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٣م.
- **خزانة الأدب وغاية الأرب.** لتقي الدين أبي بكر المعروف بابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م). المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٤هـ.

- **الدارس في تاريخ المدارس.** لعبد القادر النعيمي (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠). تحقيق: جعفر الحسني، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٨م.
- **دمية القصر وعصرة أهل العصر.** لأبي الحسن علي بن الحسن الباخرزي (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م). تحقيق: سامي مكي العاني، ط٢، دار العروبة، الكويت، ١٩٨٥م.
- **ديوان البحتري.** أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م). عني بتحقيقه: حسن كامل الصيرفي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.
- **ديوان ابن حمديس.** عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس (ت٥٢٧هـ/١١٣٢م). صححه وقدم له: إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.
- **ديوان الخنساء.** تماضر بنت عمرو بن الحارث المعروفة بالخنساء (ت٢٤هـ/٦٤٤م). تحقيق: إبراهيم عوضين.ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٦م. وتحقيق: أنور أبو سويلم، ط١، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨م.
- **ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري.** أبو الطيب أحمد بن الحسين الملقب بالمتنبي (ت٣٥٤هـ/٩٦٥م). ضبطه وصححه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الأخيرة، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٧١م.
- **ديوان ابن نباتة السعدي.** أبو نصر عبد العزيز بن عمر (ت٤٠٥هـ/١٠١٥م). تحقيق: عبد الأمير الطائي، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٧م.
- **ديوان ابن الوردي.** زين الدين أبو حفص عمر بن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م). تحقيق: أحمد فوزي الهيب. ط١، دار القلم، الكويت، ١٩٨٦م.
- **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي المشهور بابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٩٦م). حققه وقدم له: علي المنتصر الكتاني. ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥م.
- **رحلة ابن جبير.** أبو الحسين محمد بن أحمد جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م). دار صادر بيروت، ١٩٦٤م.
- **الزهرة.** لمحمد بن داود الأصفهاني (ت٢٩٧هـ/٩٠٩م). تحقيق: إبراهيم السامراني، ط٢، مكتبة المنار، الأردن-الزرقاء، ١٩٨٥م.
- **شرح مقامات الحريري.** لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المؤسسة العربية، القاهرة،١٩٧٦م.
- **شرح مقامات السيوطي.** لجلال عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، تحقيق: سمير الدروبي. ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
- **شروح سقط الزند.** لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ/١٠٧٥م). شرح: أبي زكريا التبريزي وأبي محمد البطليوسي وأبي الفضل الخوارزمي، تحقيق: مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون. وزارة الثقافة (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦م).
- **شعر ابن اللبانة الداني.** أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة (ت٥٠٧هـ/١١١٣م). جمع وتحقيق: محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٩٧٧م.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا.** لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م). مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن الطبعة الأميرية. د. ت.
- **طوق الحمامة.** لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨م.

- **طومان باي**. لعبد المنعم ماجد. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
- **عصر الدول والإمارات (مصر-الشام)**. لشوقي ضيف، دار المعرف، القاهرة، ١٩٨٤م.
- **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي**. لمحمود رزق سليم، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٤٧.
- **العقد الفريد**. لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٧هـ/٩٣٨م)، شرح وضبط: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأنباري. ط٣، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- **الغيث المسجم في شرح لامية العجم**. لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م). ط١. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.
- **فض الختام عن التورية والاستخدام**. لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م). تحقيق المحمدي عبد العزيز. ط١. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- **قاموس الأطباء وناموس الألباء**. لمدين بن عبد الرحمن القوصوني (كان موجوداً سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م) مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٠م.
- **قاموس رد العامي إلى الفصيح**. لأحمد رضا. ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- **القاموس المحيط**. لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م). ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
- **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**. لمحمد بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م). تحقيق محمد أحمد دهمان . مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١م.
- **الكامل**. لأبي العباس محمد يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م). حققه وعلق عليه: محمد أحمد الدالي. ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م). مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.
- **لسان العرب**. لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظوم (ت٧١١هـ/١٣١١م)، دار صادر، بيروت، د. ت.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. لضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. ط١، دار نهضة مصر، القاهرة،١٩٥٩م.
- **مجمع الأمثال**. لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت٥١٨هـ/١١٢٤م). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط١، عيسى البابي القاهرة، ١٩٧٩م.
- **مجمع البلاغة**. لمحمد بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م). تحقيق: عمر الساريسي. ط١، مكتبة الأقصى، عمان-الأردن، ١٩٨٦م.
- **مجموع فتاوي ابن تيمية**. جمع وترتيب: عبد الرحمن النجدي. الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء**. لمحمد بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م). دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- **المختار من شعر بشار**. لأبي طاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي (من علماء القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي). تصحيح: محمد بدر الدين العلوي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٣٤م.
- **مسالك الأبصار**. لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م).

أ - مخطوط آياصوفيا رقم: ٣٤٢٥.

ب - مخطوط أحمد الثالث رقم: ٢٧٩٧

جـ - تحقيق: أحمد زكي، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤.
د - دراسة وتحقيق: دُورُتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث،بيروت، ١٩٨٦م.
- **مطالع البدور في منازل السرور.** لعلاء الدين علي بن عبد الله الغزولي (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، الطبعة الأولى، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص.** لعبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت٩٦٣هـ/١٥٥٥م). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٧م.
- **المعتمد في الأدوية المفردة.** ليوسف بن عمرو بن رسول (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م). صححه: مصطفى السقا، ط٣، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥م.
- **معجم الأدباء.** لأبي عبد الله ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م). الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- **معجم البلدان.** لأبي عبد الله ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م). دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- **المغرب في حُلى المغرب.** لابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م). حققه: شوقي ضيف. ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- **مقامات العشاق.** للشاب الظريف التلمساني. تحقيق. التهامي الشريقي، جامعة وهران، ١٩٨٤م.
- **مملكة صفد في عهد المماليك.** لطه ثلجي الطراونة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.
- **نزهة الأنام في محاسن الشام.** لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري (من علماء القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي). الطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- **نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق.** ليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد. مجلة المشرق، ١٩٣٩م.
- **نزهة الناظر.** لموسى بن محمد اليوسفي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م). تحقيق ودراسة: أحمد حطيط. ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.
- **نفحات الأزهار.** لعبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ/١٧٣١م)، عالم الكتب، بيروت، بلاتاريخ.
- **النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.** لمحمد علي سلطاني، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٧٤م.
- **نكت الهميان في نكت العميان.** لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م). وقف على طبعه: أحمد زكي، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١م.
- **الوافي بالوفيات.** لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م). باعتناء: هلموت ريتر وغيره من الباحثين، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٩٦١م-١٩٩١م.
- **وثائق مقدسية تاريخية، كامل جميل العسلي.** مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٥م.
- **ولاة دمشق في عهد المماليك.** محمد أحمد دهمان. ط٢، دار الفكر. دمشق، ١٩٨٤م.